سلسلة في رحاب القرآن

٢

الميثاق

بقلم

الأستاذ الشيخ محمد مهدي الآصفي

دار القرآن الكريم

سلسلة في رحاب القرآن

الميثاق

«٢»

بقلم

الأستاذ الشيخ محمد مهدي الآصفي

دار القرآن الكريم

للعناية بطبعه ونشر علومه

الحوزة العلمية

ايران

قم

بِمناسَبَةِ المؤتمَرِ الثَّالِث لِلأبحَاثِ وَالدِّرَاسَاتِ القُرآنيَّة

في ايران، قم، دار القرآن الكريم ٢٧ رجب ١٤١١

هوية الكتاب

الكتاب: الميثاق ــ (٢)

المؤلّف: الاستاذ الشيخ محمّد مهدي الآصفي

الناشر: دارالقرآن الكريم ــ ايران ــ قسم ــ صندوق البريد ١٥١
شارع ارم ــ تلفون ٣٣٠٧٨ ــ الرّمز: ٠٢٥١

المطبعة: امير ــ قم المقدسه

المطبوع: ٣٠٠٠ نسخه

الطبعة: الأولى

التاريخ: ٢٧ رجب المرجب ١٤١١ هـ . ق ــ بهمن ماه ١٣٦٩

ثمن النسخة: ٣٩٠ ريالاً

الإشراف الفني: السيّد حسين آقائى

بسم الله الرحمن الرحيم

واذ اخذ ربك من بني ادم، من ظهورهم، ذريتهم، واشهدهم على انفسهم: الست بربكم؟ قالوا: بلى، شهدنا، ان تقولوا يوم القيامة: انا كنا عن هذا غافلين، او تقولوا، انما اشرك اباؤنا، من قبل، وكنا ذرية من بعدهم، افتهلكنا، بما فعل المبطلون؟

الاعراف ١٧١ ـ ١٧٢

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الميثاق: عهد بين العبد وبين الله تعالى يعترف العبد فيه لله تعالى بالربوبيه، ويعترف على نفسه بالعبوديه، ويلتزم بموجب هذا الميثاق بالطاعة لله تعالى.

والميثاق من الوثاق، والشد والربط، وكأنّ هذا الميثاق يشد الانسان ويربطه بالالتزام بالطاعة للاحكام والاوامر والحدود ـ التى يحددها الله تعالى لعباده في حياتهم، ويسلب عنهم الخيار والحريه في القبول والرد.

وعلى اساس هذا الميثاق يتم الاعتراف بالعلاقة التكوينية والعلاقة التشريعية بين الله تعالى وعباده.

وهي: الخلق والربوبية، على صعيد «التكوين» فان الله تعالى هو الخالق الرب، والانسان هو المخلوق المربوب لله تعالى، مدين له بكل شيء من وجوده.

وعلى صعيد «التشريع» الاعتراف بان الحاكمية المطلقة لله تعالى على عباده، وان على العباد الطاعة المطلقة لله تعالى.

وهاتان العلاقاتان (التكوينية والتشريعيه) متلازمتان لايمكن فصل بعضهما عن بعض.

وهذا الميثاق هو اساس دعوة الانبياء للناس، والانبياء يذكرون الناس بهذا

الميثاق الالهي، ويدعونهم الى الالتزام بهذا الميثاق، ويؤكدونه بمواثيق وعهود جديده.

وهو اساس الاسلام، فان الاسلام هو التسليم المطلق لحاكمية الله ولشريعة الله تعالى وحدوده في حياة الانسان وهو الاساس الذي ينظم علاقة الانسان في الحياة بالله تعالى وبالناس وبالاشياء وبنفسه.

فالميثـاق اذن من المسائل المحورية في الفكر الاسلامي، وقد تناوله القران الكريم في الكثير من اياته، وفيما يلي نحاول أن نبحث هذا الميثاق إن شاء الله ضمن الاجابة على الاسئلة التالية في ضوء كتاب الله:

١ـ ما هي اقسام الميثاق؟

٢ـ ما هي القيمة التكريمية لهذا الميثاق في حياة الانسان؟

٣ـ وما هي القيمة التشريعية للميثاق؟

٤ـ وكيف يكون الوفاء بهذا الميثاق ونقضه من جانب الناس ؟ وما هي آثار الوفاء والنقض بالميثاق في حياة الانسان؟

وفيما يلي نحاول أن نتناول هذه المسائل مـن خلال القران الكريم والحديث.

اقسام الميثاق

الاساس النظري في نظرية الميثاق هو تكريم الانسان من جانب الله تعالى بالطاعة عن ارادة ووعي فان الله تعالى سخرهذا الكون لارادته ومشيئته، وما من شيء في السماء والارض يخرج عن حيز الطاعة والتسليم لله تعالى ـ وينفلت عن قبضة سلطان الله ومشيئته.

﴿ألم تران الله يسجد له من في السموات ومن في الارض والشمس والقمر والنجوم والجبال، والشجر والدواب، وكثير من الناس، وكثير حق عليه العذاب، ومن يهن الله فما له من مكرم، ان الله يفعل ما يشاء﴾[1].

والسجود لله تعالى هو الانقياد والتسليم والطاعة، والكل ينقاد لامر الله انقيادا مطلقا، الاالانسان فان الله تعالى اكرمه، بان تكون طاعته له تعالى عن ارادة ووعي، ولذلك انشطر الناس الى شطرين: **﴿وكثير من الناس، وكثير حق عليه العذاب﴾**

ويقول تعالى **﴿ان ربكم الله الذي خلق السماوات والارض في ستة ايام، ثم استوى على العرش، يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بامره، الاله الخلق والامر تبارك الله رب العالمين﴾**[2] .

(١) الحج / ١٨ .
(٢) الاعراف: ٥٤ .

وقد اكرم الله تعالى الانسان من دون سائر الجمادات والنباتات والحيوانات فاراد منه الطاعة والانقياد عن وعي و ارادة.

والـطاعة عندما تكون عن وعي و ارادة تتطلب تعهدا و التزاما من جانب الانسان لله تعالى، يلتزم الانسان بموجبه الطاعة و التسليم المطلق لله تعالى... و من دون ذلكلا يمكن ان يتم بالطاعة و الالتزام من جانب الانسان لله تعالى.

و هذا هو الاساس في نظرية الميثاق في الاسلام في علاقة الانسان بالله تعالى.

و يتم هذا الميثاق بين الانسان وبين الله تعالى على صعيدين:

١ـ على الصعيد الفطري وبصورة مباشرة بين الله تعالى وعباده.

٢ـ وعلى الصعيد العقلي وبصورة غير مباشرة بين الله تعالى وعباده بواسطة الانبياء والمرسلين.

ونبدأ بدراسة اقسام الميثاق في ضوء القران الكريم والحديث:

الميثاق المباشر وغير المباشر

١ـ الميثاق الفطري المباشر:

المصدر الاول لهذا الميثاق في الفكر الاسلامي هو القران الكريم، وذلك في قوله تعالى من سورة الاعراف:

﴿واذ اخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم، واشهدهم على انفسهم: ألست بربكم؟ قالوا: بلى شهدنا، ان تقولوا يوم القيامة: انا كنا عن هذا غافلين، او تقولوا: انما اشرك اباؤنا من قبل، وكنا ذرية من بعدهم، افتهلكنا بما فعل المبطلون﴾[١] .

والاية الكريمة تتناول اربعة مسائل،وهي:

١ـ اخـذ الـذرية، وهـو بمعنى فصل الذرية واخراجها من ظهور بني آدم

(١) الاعراف: ١٧١ ـ ١٧٢ .

لمخـاطبتهم واخذ الميثاق منهم، وذلك قوله تعالى ﴿**واذ اخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم**﴾ فهذه الفقرة من الاية الكريمة تدل على تفريق ذرية بني آدم، بعضها عن بعض، لمخاطبة كل واحد منها واخذ العهد والاعتراف منه بصورة مستقلة.

٢ـ الميثاق والعهد والاعتراف بربوبية الله تعالى، وما يستتبع هذه الرموبية من العبودية والطاعة والتسليم لله تعالى وهو قوله تعالى:﴿ **ألست بربكم؟ قالوا بلى**﴾.

٣ـ الاشهاد: فلا بد في كل ميثاق وعهد من اشهاد لتوثيق العهد،والشاهد على الانسان هنا في هذا العهد هو نفسه، فلا يمكنه ان يتخلص من هذا الشاهد بحال من الاحوال، ولا ان ينكر شهادته، وذلك قوله تعالى: ﴿ **واشهدهم على انفسهم**﴾.

٤ـ الاحتجاج بهذا الميثاق والعهد، من الله تعالى على الانسان يوم القيامة اذا ادعى الانسان انه غفل في الحياة الدنيا عن هذا الميثاق، او حجبه عنه مواريث الشرك والجاهلية التي ورثها من اسلافه، وذلك قوله تعالى ﴿**ان تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين ـ او تقولوا انما اشرك اباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم افتهلكنا بما فعل المبطلون**﴾ اي اخذنا منكم هذا الميثاق واشهدناكم على انفسكم لئلا تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين.

* * *

وللمفسرين والعلماء ثلاثة أراء في تفسير هذه الاية الكريمة:

الرأي الاول:

وهو الرأي الذي يتبناه اهل الحديث في تفسير هذه الاية المباركة بموجب الاحـاديث الواردة.وخلاصة هذا الرأي ان الله تعالى اخذ من ظهر آدم ذريتة قبل ميلادهم، على هيئة ذر مبثوث في الفضاءِ او انه تعالى اخذ من ظهر ادم ذريتة ومن ظهور ذريته ذريتهم ومن ظهور الذرية من الجيل الثالث ذريتهم، من الجيل الرابع،

وهكذا، حتى استوفى كل ذرية ـ ادم قبل ميلادهم، ومنحهم العقل والوعي والارادة، وخاطبهم بقوله تعالى: ﴿ألست بربكم﴾ فاجابوا بالايجاب، والتزموا بالطاعة والعبودية لله تعالى، ثم ردهم الله تعالى الى اصلاب ابائهم حتى اجتمعوا في صلب ادم مرة اخرى.

وقد ورد في ذلك روايات عن طرق الشيعة والسنة، نشير الى بعضها:

١ـ عن ابي عبد الله الصادق عليه السلام في قول الله ﴿ واذ اخذ ربك من بني ادم من ظهورهم ذريتهم﴾ قال: اخرج الله من ظهر ادم من ذريته الى يوم القيامة فخرجوا كالذر فعرفهم نفسه ولولا ذلك لن يعرف احد ربه، ثم قال ﴿ألست بربكم﴾ قالوا: بلى [1].

٢ـ عن زرارة قال سألت ابا جعفر عليه السلام عن قول الله عزوجل: ﴿واذ اخذ ربك من بني ادم﴾ قال اخرج الله من ظهر ادم ذريته الى يوم القيامة فخرجوا كالذر فعرّفهم نفسه واراهم نفسه ولولا ذلك ما عرف احد ربه [2].

٣ـ وعن احمد بن حنبل عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي (صلّى الله عليه وآله) قال: ان الله اخذ الميثاق من ظهر ادم عليه السلام يوم عرفة فاخرج من صلبه كل ذرية ذراها فنثرها بين يديه ثم كلمهم فتلا قوله تعالى: ألست بربكم قالوا بلى... الى اخره [3].

والاحاديث بهذا المعنى كثيرة، وان كان اكثرها من طرق اهل السنة، وما ورد من طرق الشيعة فاكثره ضعيف لا يمكن الاعتماد عليه.

وعندما تم اخذ الميثاق من ذرية ادم اعادهم الله تعالى الى صلب ادم من جديد، حتى اذا اخرجهم مرة اخرى الى الحياة الدنيا للامتحان والابتلاء بالتدريج.. ذكروا

(١) بحار الانوار: ٢٥٠/٥ ح: ٤١

(٢) المصدر نفسه: ٢٥٨/٥ ح: ٤١

(٣) تفسير المنار: ٣٨٩/٩ ـ ٣٩٠.

ما عرفوه يوم الذر من الاعتراف بربوبية الله وتوحيده وما الزموا به انفسهم من العبودية والطّاعة.وانكانوا قد نسوا الموقف وما كان فيه من خطاب وجواب.

عن زرارة قال سألت ابا جعفر عن قول الله عزوجل: ﴿واذ اخذ ربك﴾ قال: ثبتت المعرفة ونسوا الوقت وسيذكرونه يوما ولولا ذلك لم يدر احد من خالقه ولا من رازقه[١].

ومهما يكن من امر فان من الصعب تفسير الاية الكريمة بهذا التفسير وحمل الاية على هذا المعنى الذي يظهر من بعض الروايات، والله تعالى اعلم بمراده وقصده فان الاحاديث تشير الى ان الله استخرج ذرية ادم من صلبه، والاية الكريمة تصرح بان الله اخذ من بني ادم من ظهورهم ذريتهم وهو امر اخر يختلف عما تنطق به الاحاديث. والتفسير بهذه الطريقة يثير سؤالا في الذهن من الصعب ان يجد الانسان له جوابا مقنعا وهو السؤال عن جدوى هذا العهد والميثاق الذي اخذه الله تعالى على عباده من قبل ميلادهم.. فليس هناك من يذكر هذا العهد والميثاق الذي تعهد به قبل ولادته، ومثل هذا الميثاق الذي نسيه الانسان في الحياة الدنيا لن يكون حجة على الانسان، واما الوعي الفطري والعقلي للتوحيد الباقي مع الانسان في هذه الحياة الدنيا فهو حجة على الانسان بنفسه سبقه عهد قد نسيه الانسان ام لم يسبقه.

ملاحظة ثالثة في تفسير الايه الكريمة بهذا الرأي: ان الاعتراف والاقرار والاشهاد والميثاق لابد ان يكون قد تم بهذه النفس التي جاءبها الانسان الى الحياة الدنيا، ولن ينفع هذا الاعتراف والاقرار والميثاق لو كان بنفس اخرى...وليس من شك من الناحية العقلية ان هذه النفس نشأت مع هذا البدن في هذه النشأة الدنيوية وتنمو وتكتمل مشاعرها ووعيها بنمو البدن، ثم تستقل عن البدن بعد موت البدن وتفارقه بناء على نظرية الحركه الجوهرية.. ومع التسليم بمقدمات ونتائج هذه

(١) تفسير نور الثقلين: ٩٦/٢ ح ٣٥٠ وبحار الانوار: ٢٤٣/٥ وبمضمونه روايه اخرى عن ابي محمد عليه السلام في البحار ٢٦٠/٥.

النظرية فلا سبيل الى القول بتقدم خلق النفس على البدن.

فمن الصعب اذن قبول هذا الرأي في تفسير هذه الاية الكريمة، والله تعالى اعلم بكلامه ومراده رزقنا الله تعالى فقه كلامه واياته.

واما الاحاديث الواردة في عالم الذر، والتي فسرت بها الاية الكريمة وذكرنا جملة منها... فلما كانت منافية لظاهر الاية الكريمة ولظاهر معنى الميثاق وما يطلب من الميثاق من الاحتجاج على العبد فلا بد من توجيهها، وتأويلها، بشكل لا يصادر ظاهر الاية الكريمة، ولا الفائدة المطلوبة من الميثاق والعهد الالهي... على ان جملة كبيرة من هذه الروايات لم ترد في مورد الاية الكريمة ولا تخص مضمونها... وهي من حيث السند ضعيفة لا يمكن الاعتماد عليها.

والذي اظنه في امثال هذه الاحاديث ان هذه الاحاديث تتحدث بلغة الرمز، وهي لغة مألوفة في امثال هذه المسائل في القران والحديث، يعرفه من الف لغة القران والحديث في مسائل بدأ الخلق والتاريخ.

ولا يبعد ان يكون المقصود من هذه المخاطبة والاقرار في عالم الذر ـ والله اعلم ـ هو الخطاب بلغة التكوين والخلق، والاقرار بلغة الاستعداد ولسان الحال، كما في قوله تعالى﴿**ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا او كرها، قالتا اتينا طائعين**﴾[1] وقوله تعالى ﴿ **يوم نقول لجهنم هل امتلات وتقول هل من مزيد**﴾[2].

وهذا النوع من الخطاب، والهتاف، والاقرار امر مألوف معروف في القران والحديث.

وقد انتبه الى ذلك في تفسير هذه الاية جمع من قدماء الفقهاء والعلماء كالشيخ المفيد والسيد المرتضى رحمهما الله.

(١) فصلت: ١١.
(٢) ق: ٣٠.

يقول الشيخ المفيد في جواب المسائل السرويه:

فان تعلق متعلق بقوله تبارك اسمه **﴿واذ اخذ ربك من بني ادم﴾** فظن بظاهر هذا القول تحقق ما رواه اهل التناسخ والحشوية والعامة في انطاق الذرية وخطابهم وانهم كانوا احياء ناطقين فالجواب عنه: هذه الاية من المجازفي اللغة كنظائرها مما هو مجاز واستعارة) .

كما أول السيد المرتضى هذه الاية الكريمة بتأويل قريب من تأويل استاذه المفيد رحمهما الله(٢).

الرأي الثاني:

الرأي الثاني في تفسير الاية الكريمة للعلامة الطباطبائي رحمه الله صاحب تفسير الميزان ومما يختص به، حيث يرى ان للاشياء وجودين وجود واسع عند الله ووجود مقدر في هذه النشأة الدنيوية.

والوجه الذي يلي الله تعالى للاشياء واسع غير مقدر محيط بالوجه الذي يلي الـدنيا والوجه الذي يلي الدنيا مقدر بتقديرات دقيقة، وينمو نموا تدريجيا، يخرج بموجبه من القوة الى الفعل، وذلك قوله تعالى: **﴿وان من شيء الاعندنا خزائنه وما ننزله الابقدر معلوم﴾**(٣)

ولكي يتسنى لنا ان نلم المامة جيدة بهذا الرأي لابد ان نقف عند هذه الاية الكريمة من سورة الحجر وقفة قصيرة لما لهذا الرأي من صلة وثيقة بهذه الاية الكريمة.

فنقف اولا وقفات قصيرة عند مفردات هذه الاية الكريمة لننتقل الى معناها الاجمالي بعد ذلك واليك ذلك:.

(١)راجع بحار الانوار ٢٦٨/٥ ـ ٢٦٩.

(٣) الحجر: ٢١ .

١ـ ﴿وان من شيء﴾: الشيء هنا عام يشمل كل شيء، لموضع النكرة في سياق النفي وهـذا الموضع يفيد العموم والشمول، وبناء على رأي الاستاذ العلامة الطباطبائي رحمه الله لا يخص الانواع من الاشياء فقط وانما يشمل الافراد والجزئيات ايضا.

٢ـ ﴿عندنا﴾: لكل شيء، على ما تقدم من العموم والشمول ، وجهان: وجه عند الله، ووجه لدينا في هذه الدنيا، والوجه الذي عند الله تعالى هو الوجه(الملكوتي) للاشياء، والوجه الذي لدينا من الاشياء في الدنيا هو الوجه (الملكي) للاشياء.

٣ـ ﴿خزائنه﴾: والوجه الذي يلي الله تعالى في عالم الملكوت غير محدود، وغير مقدر بمقادير الدنيا وواسع ومحيط، وعند الله تعالى في عالم الملكوت من كل شيء خزائن واسعة، وتلك الخزائن محيطة بالوجه الذي يلي الدنيا للاشياء لان الوجه الذي يلي الدنيا محدود، ومقدر، والوجه الذي عند الله واسع وغير مقدر بهذه المقادير، فيحيط به بالضـرورة ويشمله. وهذه الخزائن لاتنقص بنزول ما ينزل من المقادير المعلومة للاشياء من عالم الملكـوت الى عالم الملك، فليس مثلها كمثل القطرة من الماء اذا اخرجت من البحر، قل بمقدارها ماء البحر، مهما كانت القطرة صغيرة والبحر كبيرا، وانما مثلها كمثل الفكر الذي ينقله الانسان الى الآخرين وينحدر من انسان الى اخر من دون ان ينقص من افكار الطرف الاول شيء.

وكذلك خزائن عالم الملكوت تنزل في كل شيء بامر الله الى عالمنابمقادير خاصة يقدرها الله تعالى، من دون ان ينقص منها شيء ﴿ما عندكم ينفد وما عند الله باق﴾[(١)].

وتسمية هذا العـالم بالملكـوت ما خوذة من القران الكريم ﴿وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السماوات والارض وليكون من الموقنين﴾[(٢)]

وهذا العالم ليس هو عالمنا المشهود، وانما هو عالم فوق هذا العالم لان الله

(١) النحل: ٩٦. (٢) الانعام: ٧٥.

تعالى يعبر عنه بـ (عندنا)، والاشياء هناك ثابتة، غير زائلة،ولا متغيره، تعكس وجود الاشياء هنا في هذا العالم فهي زائلة ومتغيرة ونافذة لقوله تعالى: ﴿ما عندكم ينفد وما عند الله باق﴾[١].

٤ـ ﴿وما ننزله﴾ النزول هو انتقال الشيء من الاعلى الى الاسفل، ولما كان العلو والسفل المكاني لا معنى له في هذا الانتقال فلا بد ان يكون العلو والسفل امرا معنويا يخص طبقة عالم الملكوت تجاه عالم الملك، فيكون عالم الملكوت اعلى من عالم الملك الذي هو دنيانا التي نعيش فيها، كما ان طبيعة النزول من الاعلى الى الاسفل تقتضي ان تكون رتبة عالم الملكوت قبل عالم الملك.

فالاشياء انما تنزل الى عالم الملك بامر الله من عالم الملكوت، فلابد من تقدم عالم الملكوت على عالم الملك تقدما في الرتبة كما في تقدم العلة على المعلول، وان تقارن الشيءالواحد في هذا العالم وذلك العالم في وقت واحد.

والتعبير عن الخلق في هذا بـ﴿النزول﴾ ورد في القران الكريم في اكثر من موضع ﴿وانزلنا الحديد﴾[٢]، ﴿وانزل لكم من الانعام ثمانية ازواج﴾[٣] وهو مما يؤكد هذه الحقيقة القرانية وهي ان خلق الاشياء في هذا العالم هو بمعنى نزوله من عالم الملكوت الى عالمنا بامر الله تعالى.

ويتم النزول بامر الله تعالى، ولا يتطلب امر الخلق والانزال من الله تعالى جهدا او حركة او مراحل من الخلق والعمل، وانما يتم ذلك كله بامره تعالى وارادته ومشيئته دفعة واحدة يقول تعالى: ﴿انما امره اذا اراد شيئا ان يقول له كن فيكون فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء﴾[٤].

﴿وما امرنا الا واحدة كلمح بالبصر﴾[٥] فما يتعلق من النزول بامر الله تعالى يتم دفعة واحدة، وهذا معنى قوله تعالى ﴿كن﴾.

ولكن تقبل الاشياء لامر الله تعالى وايجاده وخلقه امر اخر يحتاج الى زمن

(١) النحل: ٩٦. (٢) الحديد: ٢٥. (٣) زمر: ٦. (٤) يس: ٨٣. (٥) القمر: ٥٠.

للتدرج في الخروج من القوة الى الفعل ،ومن العدم الى الوجود، ولا يتم ذلك الا بمرور زمن يطول او يقصر يقول تعالى ﴿هو الذي خلق السماوات والارض في ستة ايام﴾[(١)]

ويقول تعالى ﴿خلق الارض في يومين﴾.[(٢)]

وهذا هو الوجه الاخر من عمل الخلق والانزال، والذي يتعلق بالاشياء وبقبولها لامر الله وتعبر عنه الاية الكريمة بـ ﴿فيكون﴾.

فما يتعلق من امر النزول بامر الله تعالى وهو الوجه الذي يلي عالم الملكوت يتم دفعة واحدة من دون تدريج، وما يتعلق منه بالاشياء، وهو الوجه الذي يلي عالمنا يتم بالتدريج بالخروج من القوة الى الفعل.

٥ـ ﴿بقدر معلوم﴾: ونزول الاشياء بامر الله من خزائن الملكوت يتم ﴿بقدر معلوم﴾، وهذا القدر المعلوم هو حدود الشيء التي بها تتميز الاشياء بعضها عن بعض، فيتميز الحجر عن الشجر بحدوده، ومميزاته ومقاديره، كما تتميز الاحجار بعضها عن بعض.

ولا يمكن ان ينفك النزول الى عالم الملك عن التقديروالتحديد، فلكل انسان حدوده التي يتميز بها عن سائر الانواع من الحيوانات والنباتات والجمادات، وله حدوده التي يتميز بها عن سائر الاشخاص من افراد الانسان، وللقوى التي رزقه الله تعالى حد ومقدار، ولا يمكن ان ينفك الخلق والانزال في هذا العالم عن التقدير والتحديد... وهذا هو (القدر) الوارد في روايات (القضاء والقدر) يقول تعالى ﴿الذي خلق فسوى والذي قدّر فهدى﴾[(٤)]، فلا تتم هداية الاشياء الى الاهداف التي خلقت من اجلها الا بعد خلقها وتسويتها وتقديرها، ويقول تعالى ﴿الذي اعطى كل شيء خلقه ثم

(١) الحديد: ٤ .

(٢) فصلت: ٩ .

(٣) الاعلى: ٣ .

هدى﴾[١]، وهي تؤكد مضمون الاية الاولى: فلا يمكن ان يتحقق أي شيء من الغايات والاهداف التي خلق من اجلها الا بعد ان يعطيه الله تعالى خلقه الخاص، وحدوده وقدره الخاص يقول تعالى ﴿وكل شيء عنده بمقدار﴾[٢].

فلا يمكن ان ينفك الخلق والانزال الى هذا العالم من التقدير، والتحديد والتشخيص بعكس عالم الملكوت الذي هو عالم الجمع والسعة، وفيه خزائن كل شيء، ولا نفاد له ولا يتحدد بالحدود التي تتحدد بها الاشياء هنا في عالم الملك.

* * *

وعليه فان آية سورة الحجر تشير الى ان لكل شيء، وجهين مختلفين وجه في عالم الملكوت عند الله، ووجه اخر في عالم الملك عندنا، ينزل من الوجه الاول بامر الله وهما ليسا شيئين مختلفين وانما هما وجهان لشيء واحد، احدهما وهو الوجه الذي عند الله محيط بالاخر، وهو الوجه المقدر النازل الى الحياة الدنيا.

والوجه الثاني متأخر عن الوجه الاول تأخرا في الرتبة ومتفرع عليه لقوله تعالى ﴿ انما امره اذا اراد شيئاً ان يقول له كن فيكون ﴾، فلا ينزل من شيء من خزائن الله الا بامر الله: ﴿اذا اراد شيئا ان يقول له كن فيكون﴾[٤] والا بقدر معلوم ﴿وما ننزله الا بقدر معلوم﴾[٥].

ومع ذلك فهما وجهان لشيء واحد وفي زمان واحد وان كان احدهما متفرع عن الاخر ومتأخر عنه في الرتبة.

وهذان الوجهان من نشأتين مختلفتين ولكل من هاتين النشأتين احكامها الخاصة بها.

(١) طه: ٥٠ .

(٢) الرعد: ٨ .

(٣) يس: ٨٣ . (٤) يس: ٨٢. (٥) الحجر: ٢١.

وبناء على هذه النظرية في تفسير آية ٢١ من سورة الحجر، فان لكل فرد من افراد الانسان نشأتين ووجهين، وجه يلي الله تعالى وعنده في خزائنه الواسعة ووجه يلي الحياة الدنيا، والوجه الذي يلي الله تعالى له وجود واسع يفيض منه الله تعالى الوجود على الوجه الذي يلي الدنيا.

والوجه الذي فى خزائن الله لا يغيب عن الله وكيف يغيب فعل عن فاعله ولا يحجبه شيء عن الله بخلاف الوجه الذي يلي الحياة الدنيا فان صوارف هذه الحياة وشواغلها تحجبه عن الله ولا يتلوث الوجه الاول بلوثة الشرك والكفر والعصيان بينما يتعرض الوجه الثاني للوثة الشرك والعصيان.

والناس في هذه النشأة الاولى عند الله، يشاهدون الله ولا يغيبون عنه ولا يحجبهم عنه تعالى شيء، فيقرّون له بالربوبية ويقرون على انفسهم بالعبودية، ويقرّون له تعالى بالطاعة والتسليم.

وهذه خلاصة رأي العلامة الطباطبائي رحمه الله في تفسير الميثاق من اية ١٧٢ من سورة الاعراف وهي التفاتة دقيقة ومستنيرة وادراكها واستيعابها يحتاج كما يقول رحمه الله الى لطف قريحة، وان اراد احد ان يطلع على تفاصيل اكثر لهذه النظرية، واستيعاب اوسع لها فعليه بمراجعة التفسير القيم (الميزان) الجزء الثامن صفحة ٣١٩ـ٣٢٢ من الطبعة الثانية.

وهذا الرأي اشمل من الرأي الثالث الذي يأتي ان شاء الله في تفسير الميثاق بالميثاق الفطري، فهو ميثاق عقلي، وفطري واعي للانسان في هذه النشأة الربانية، يستحضره الانسان لو عاد الى عقله وفطرته، واخترق حجب الغفلة ومواريث الشرك من الاسلاف.

والخطاب والجواب في هذا الميثاق ـ بناءعلى هذا التفسير ـ ليس خطابا وجوابا محسوساً كالمعهود من الخطاب والجواب، وكما ورد في التفسير الاول، وانما يرمز هذا الخطاب والجواب الى استجابة الانسان في تلك النشأة استجابة فطرية وعقلية للاقرار

بر بوبية الله تعالى وعبودية الانسان لله تعالى، والاستجابة والتسليم لدعوته وحاكميته تعالى.

فليس في الامر ـ اذن ـ موقف محسوس لمثل هذا الخطاب والجواب، كي لا يتم الاحتجاج به عند نسيانه في هذه النشأة، فيتم الاحتجاج على الانسان بهذا الميثاق، ولا يصح منه اعتذار بالنسيان والغفلة ومواريث الاباء.

وان كان هناك من ملاحظة تحوم حول هذا التفسير ففي تفسير «الشيء» في قوله تعالى﴿**وان من شيء إلّاعندنا خزائنه**﴾ بالجزئيات والافراد، والذي يتبادر الى الذهن في تفسير (الشيء) النوع وليس الجزئيات والافراد ومعنى قوله ﴿**وان من شيء الا عندنا خزائنه**﴾: مامن نوع من الانواع الا كان عند الله خزائنه، وما ينزل منه من الجزئيات والافراد الا بقدر معلوم في الكم والكيف وفي المقدار، والله تعالى ادرى بكلامه.

الرأي الثالث:

ان هذا الخطاب والحوار قد وقع بالمعنى الذي سوف نشرحه ـ ان شاء الله ـ في عالم الذر قبل ميلاد بني ادم كما ورد في الروايات فاخذ الله تعالى ذرية بني ادم من ظهر ادم ـ او ظهر ادم وذريته بالتوالي كما شرحناه انفا، ونشرها بين يديه على هيئة الذر (ذرات ناعمة ودقيقة) في الفضاء، واخذ الله تعالى منها الاقرار بالعبودية والطاعة.. الاان الجواب والاقرار تم بلسان الاستعداد، وهولسان مألوف في التخاطب، والقران الكريم يستعمل هذه اللغة احيانا.

فان هذه الذرات التي اخذها الله تعالى من ظهر ادم قبل ميلاد بني ادم كانت تحمل على ـ مايبدو ـ كل الاستعدادات والقوى والامكانات والمواهب التي تبرز في شخصية الانسان السوي من العقل والفطرة والضمير والعاطفة والاحساس والبصيرة والفؤاد، والسمع، والبصر، وما الى ذلك من نوافذ المعرفة في شخصية الانسان، وكذلك

النزوع الفطري في شخصية الانسان الى الايمان بالله، والتسليم له تعالى.

وهذه الاستعدادات والكفاءات وان كانت غير واقعة ولا فاعلة في هذه الذرات بطبيعة الحال الا انها تشكل اساسا بالقوة لكل الاستعدادات والمواهب والقدرات التي تنطوي عليها شخصية الانسان وتبرز في حياة الانسان وتشكل سجلا دقيقا بالقوة، لكل شخصية الانسان، وكتابا حافلا بكل ما يحمله الفرد من المواهب والكفاءات والقدرات كما تحمل نواة الخلية الناسلة الواحدة (الزيجوت او اللاقحة) كل خصائص ومكونات الانسان والمواريث التي يرثها من اسلافه(١).

فهذه الذرات الدقيقة المبثوثة في الفضاء، والتي اخذها الله تعالى من ظهر بني

(١) تتركب هذه الخلية من نواة الحيوان المنوي للرجل ونواة البويضة للانثى ويقول العلماء ان كل دفعة واحدة من المني تنتج ما يقرب من خمسمائة مليون حيوان منوي تتسابق باتجاه البويضة ايها يسعدها الحظ فتخترق البويضة لتكون معها خلية واحدة هي الخلية اللاقحة الاولى لبناء الانسان، وتحتوي هذه الخلية على (٢٤) زوجا من الكروموزومات اي ثمانية واربعين كروموزما يشكل كل اثنين منها زوجا متشابها من الكروموزمات، وهي خيوط دقيقة، تحمل جسيمات صغيرة تسمى بـ (الجينات) تصطف على امتداد الكروموزومات الواحده خلف الاخرى كما تنتظم الاحجار الكريمة على العقد، ويبلغ عدد هذه الجنيات عشرين الفا تقريبا، وهي تتوزع على ثماني واربعين كروموزما داخل نواة الخلية حيث يصيب كل واحد من الكروموزومات ما يزيد على اربعمائة جينة (عدد الجينات على الكروموزومات يختلف باختلاف طول وقصر الكروموزوم، وهذه الجينات هي الخزائن التي تحتوي الخصائص والمكونات ومواريث الانسان من اسلافه وكل زوج من هذه الجينات على كروموزومين متشابهين يتفاعلان يعملان على افراز من خصائص شخصية الانسان.

ان هذه الذرة الدقيقة والبالغة الدقة (الخلية الواحدة)تحمل في نواتها كل خصائص شخصية الانسان، وتشكل سجلا حافلا بكل خصائص ومكونات الانسان، ولكن في مرحلة القوة والكمون،وتبرز هذه الخصائص بالتدريج من القوة الى الفعل بالانقسامات المتوالية للخلية، وكل خلايا جسم الانسان تحمل هذا السجل الحافل، بمواريث الاسلاف ومكونات وقدرات الانسان ولكن هذه الخلايا تقوم بافراز اثرها في العضو المناسب فقط. فجينتالون العين مثلا موجودتان في كل خلية من خلايا الجسم الا انهما يحدثان اثرهما في العين فقط.

وهذه الخلايا التي تشكل سجلات دقيقة وواسعة لمكونات شخصية الانسان صغيرة ودقيقة، بالغة الصغر والدقة بحيث لو اننا اردنا ان نقوم باحصائية واسعة لكل الخلايا الموجودة في جسم انسان معتدل الوزن والحجم لانتهينا الى رقم يقترب من عشرة ملايين بليارات خلية يعني $(10)^{16}$ خلية ولو اردنا احصا

ادم وادم قبل خلقهم كانت تحمل سجلا حافلا بالقدرات والمواهب والكفاءات التي يحملها كل انسان يعيش على وجه الارض...

وهذه الكفاءات والقدرات كانت موجودة بالقوة في هذه الذرات، وان كانت غير واعية ولافاعلة، ولكنها تشكل سجلا دقيقا لها جميعا في مرحلة القوة والكمون.

فاستنطقها الله تعالى جميعا بالخطاب الكريم: ﴿ألست بربكم؟﴾ فاقرت واعترفت، بلسان الاستعداد الكامن فيها بالربوبية لله تعالى والطاعة.. وكان الله تعالى اذ خلق هذه الكائنات الدقيقة والحافلة بخزائن الكفاءات والقدرات الانسانية يطلب منها الاقرار له تعالى بالربوبية، وهذا هو لسان الخلق والتكوين ـ فتقر هذه الذرات لله تعالى بالربوبية بلسان الاستعداد فهي وان كانت غير واعية ولكنها تحمل الاستعداد للوعي الفطري، والايمان بالله بشكل كامل ... وهذا الاستعداد ينطوي على نوع من الاقرار بربوبية الله تعالى، كما تحمل الفطرة والعقل الواعيين اقرارا فعليا بالربوبية والطاعة.

وهذه لغة في التخاطب يستعملها القران الكريم احيانا، ومن المحتمل ان يكون منها ـ والله تعالى ادرى بمقاصده ـ قوله تعالى:ـ ﴿قال يا ادم انبئهم باسمائهم فلما انبأهم باسمائهم قال الم اقل لكم اني اعلم غيب السماوات والارض﴾.(١)

فلم ينبأ ادم الملائكة بالاسماء، وانما عرفوا منه انه يملك القدرة على الاجابة ومن ذلك قوله تعالى ﴿يوم نقول لجهنم هل امتلات وتقول هل من مزيد﴾(٢) فلم يتم سؤال وجواب في اغلب الظن بين الله تعالى والنار بالطريقة التي يوحيها ظاهر الالفاظ، وانما يعبر عن استعداد جهنم لقبول مزيد من المجرمين.

وهذه طريقة مألوفة في القران والحديث للتعبير عن المسائل الغيبية التي تتم

هذا الرقم كما يقول احد الفضلاء الذي قام بتقسيم هذا العدد على الزمان، وتمكنا من احصاء كل الف خلية في ثانية واحدة لاحتجنا الى ٣٠٠ر٠٠٠ سنة متواصلة متصلة ليلا ونهارا لاحصاء هذا العدد الهائل العظيم.

(١) البقرة: ٣٣. (٢) ق. ٣٠.

خارج الدوائر المحسوسة والقريبة من حس الانسان.

نظرية في طريقة دلالة الالفاظ:

ولكي نوفي هذه النقطة حقها من الدراسة لابد ان نشير الى قاعدة قد تعيننا في الاجابة على الكثير من هذه التسأولات في القران والحديث:

وهي ان الالفـاظ لم توضع اساسا للمصاديق وانما وضعت للمفاهيم، وتبادر المصـاديق الحسية من هذه الالفـاظ الى الذهن يتم بفعل الانس الذهني مع هذه المصاديق المحسوسة وكثرة استعمال هذه الالفاظ في هذه المصاديق.

فلفظ (القلم) و(اللوح) و(الكتاب) و (الميزان) و(الكلمة) لم توضع للمصاديق المحسوسة من هذه الالفاظ، وانما وضعت للمفاهيم العامة التي تنطبق على المصاديق الحسية؛ وعلى غيرها على نحو سواء من دون تجوز في استخدام اللفظ.

فالميزان، هو ما يوزن به، سواء كان الميزان وما يوزن ماديا محسوسا ام كانا غير محسـوسـين، ومحاسبة الله تعالى لعباده وتقديره لحسناتهم وسيئاتهم من الميزان، ويسمي علماء المنطق علم المنطق بـ (الميزان) لانه اداة لتشخيص الحق من الباطل. والصحيح من السقيم.

والكتاب هو السجل الذي يحتفظ بالمعلومات سواء كان من القرطاس اومن الكتاب الذي يقول عنه تعالى **﴿ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين﴾**[(١)]، **﴿ولا اصغر من ذلك ولا اكبر الا في كتاب مبين﴾**[(٢)] والمقصود بالكتاب في هاتين الآيتين هو علم الله تعالى الذي لا يشذ عنه صغير ولا كبير، ولا رطب ولا يابس.

وقوله تعالى **﴿وما اهلكنا من قرية الا ولها كتاب معلوم﴾**[(٣)]

(١) الانعام : ٥٩ .

(٢) يونس : ٦١ .

(٣) الحجر : ٤ .

والكلمة هي وسيلة واداة للتعبير والقاء المعنى، وقد تكون الكلمة هي اللفظ المعبر عن المعنى، وقد تكون الكتابة. وقد تكون الاشارة، وقد تكون غيرها. والقران الكريم يعبر عن المسيح بن مريم عليه السلام بـ (كلمة الله) يقول تعالى: ﴿**ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم**﴾[١] فالمسيح بن مريم من كلمات الله، به اظهر الله تعالى امره، وبه حقق الله البشارة التي بشر بها موسى عليه السلام بني اسرائيل من قبل.

وعلى هذا الاساس فان (الاشهاد) و (السؤال) الست بربكم ؟، و (الجواب) و (الاقرار) قالوا: بلى لا يختص بالاشهاد والسؤال والاقرار المألوف عند الناس عن طريق المشافهة والمخاطبة، ويشمل كل الوسائل المعبرة عن المطالبة، والاقرار والاشهاد.

الرأي الرابع:

والذي اتصوره في تفسير الاية الكريمة: ان الميثاق الذي تشير اليه الاية الكريمة تم في هذه النشأة، وفي الحياة الدنيا التي نعيشها، وان الذرية التي اخذها الله تعالى من ظهور بني ادم ليس من الذر المبثوث، وانما هو ذرية حقيقة بمعنى النشاء والنسل كما في قوله تعالى ﴿**وله ذرية ضعفاء**﴾[٢] وقوله تعالى﴿ **فما امن لموسى الا ذرية من قومه**﴾[٣] واخذ الذرية من ظهور بني ادم هو الولادة الطبيعيّة التدريجيّة لذرية بني ادم من اصلاب ابائهم وارحام امهاتهم.

والميثاق الذي تشير اليه الاية الكريمة ميثاق فطري يعقده العبد مع الله تعالى في الاقرار بالربوبية لله والعبودية والطاعة لنفسه بصورة فطرية وهذا الميثاق الفطري

(١) آل عمران: ٤٥ .
(٢) البقرة: ٢٦٦ .
(٣) يونس : ٨٣ .

الذي يتم بين العبد وبين الله تعالى يتم في مرحلة من مراحل النضج والوعي الفطري بدون استثناء.

فقد روي عن رسول الله صلّى الله عليه وآله (كل مولود يولد على الفطرة)، فلا بد ان يمر كل انسان بمرحلة من النضج والوعي الفطري، تتفتح نوافذ قلبه وفطرته على الله تعالى في مرحلة مبكرة من عمره، ثم تفسده التربية والبيئة بعد ذلك وفي هذه المرحلة ينعقد هذا الميثاق الفطري بين العبد وبين الله تعالى، ويلزمه الله تعالى بعد ذلك بهذا الميثاق ويحتج به عليه، ولا ينفعه ان يعتذر بالغفلة او تقليد الاباء.

وهـذا الميثـاق الفطري يتقوم بمطالبة الله تعالى لعباده بالاقرار بربوبيته: ﴿ألست بربكم﴾ أولاً، وبـاقـرار العبـاد لله تعـالى بالـربـوبيه (قالوا:بلى) ثانيا، وبالاشهاد على انفسهم ﴿واشهدهم على انفسهم﴾ ثالثا.

وكل ذلك يجري بصورة فطرية، واللغة التي يستعملها القران الكريم في هذا الحوار لغة رمزية تشير الى لجوء الانسان الفطري الى الله تعالى، واحساسه الفطري العميق بالحاجه الى الله وربوبية الله تعالى له.

فالخطاب من الله تعالى للذرية يرمز الى الخلق والربوبية، وفي الخلق والربوبية ما يستنـطق المخلوق للاقرار بربوبية الخالق والإعتراف بحاجته اليه، وارتباطه به حدوثا واستمرارا.

وفي حاجة العبد الى الله تعالى وفقره اليه تعالى ما يستبطن الاقرار بربوبية الله تعالى وعبودية الانسان، فكل انسان يشعر شعورا فطريا عميقا بفقره، وحاجته، وعدم استقلاله، في اي شيء يتعلق بحياته، وهذا الفقر والحاجة التي هي ابرز سمات الممكنات هي اقرار بالربوبية والعبودية.

وفي وقوف الانسان واطلاعه على حاجته وفقره وارتباطه بالله تعالى في الحدوث والبقاء اشهاد للانسان على نفسه بالعبودية.

وهـذه لغـة رمـزية مألوفة في القران والحديث لمن يألف لغة القران الكريم

والحديث الشريف في مثل هذه المسائل.

رأي الشيخ المفيد:

يقول الشيخ المفيد رحمه الله في اجوبة المسائل السروية: (فان تعلق متعلق بقوله تبارك اسمه ﴿واذ اخذ ربك من بني ادم﴾ فظن بظاهر هذا القول تحقق ما رواه اهل التناسخ والحشوية والعامة في انطاق الذرية وخطابهم، وانهم كانوا احياء ناطقين، فالجواب عنه ان هذه الاية من المجاز في اللغة، كنظائرها مما هو مجاز واستعارة.

والمعنى فيها ان الله تبارك وتعالى اخذ من كل مكلف يخرج من ظهر ادم وظهر ذريته العهد عليه بربوبيته من حيث اكمل عقله، ودله باثار الصنعة على حدوثه، وان له محدثا احدثه لا يشبهه، يستحق العبادة منه بنعمه عليه.. فذلك هو اخذ العهد منهم، والاشهاد لهم على انفسهم بأن الله تعالى ربهم)[1].

ثم استشهد على استخدام القران الكريم لهذه اللغة الرمزية في امثال هذه المعاني بقوله تعالى ﴿ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللارض أتيا طوعا او كرها قالتا اتينا طائعيين﴾[2].

فقال رحمه الله: (وهو سبحانه لم يخاطب السماء بكلام، ولا السماء قالت قولا مسموعا، وانما اراد انه عمد الى السماء فخلقها، ولم يتعذر عليه صنعها، فكانه لما خلقها ﴿قال لها وللارض ائتنا طوعا او كرها﴾ فلما تعلقت بقدرته كانتا كالقائل ﴿اتينا طايعين﴾. وكمثل قوله تعالى ﴿يوم نقول لجهنم هل امتلات وتقول هل من مزيد﴾[3] والله تعالى يجل عن خطاب النار، وهي مما لايعقل ولا يتكلم، وانما الخبر عن سعتها، وانها لاتضيق بمن يحلّها من المعاقبين، وذلك كله على مذهب اهل اللغة وعادتهم في المجاز،الا ترى الى قول الشاعر

(١) بحار الانوار: ٥/٢٦٤.

(٢) فصلت: ١١.

(٣) ق: ٣٠.

وقـالت له العينـان سمعـا وطاعة　　　واسـبلتـا كالـدر ما لم يثقب [١]

* * *

اذن في مرحلة مبكرة من مراحل نصح الفطرة يتفتح الانسان للاستجابة لله تعالى، والنزوع الى الدين بصورة فطرية عميقة نابعة من عمق الفطرة والذات الانسانية.

وهذه الاستجابة الفطرية هي الاقرار بربوبية الله تعالى والطاعة والتسليم له بلغة الفطرة، كما ان خلق الانسان وابداعه من جانب الله تعالى ينطوي على اخذ الاقرار والاعتراف من العهد بربوبية الله تعالى ووجوب التسليم له.

* * *

جولة تأمل في عمق الفطرة:

ولكي نفتح هذا الموضوع المهم اكثر.. لابد ان ندخل الى عمق فطرة الانسان لنبحث عن جذور هذا الاقرار والاشهاد في داخل الذات الانسانية.

فهنـاك في عمق فطرة الانسان ترابط وثيق بين ظاهرتين مألوفتين في حياة الانسان وهما (الجميل، والوفاء) فكل (جميل) واحسان يستتبع (الوفاء) بصورة فطرية في نفس الانسان ويعتبر كل جميل دينا على ذمة الانسان يستوجب التسديد والوفاء.

فكما ان الشرع والقانون يلزم المدين بالوفاء وتشديد الدين، كذلك الفطرة الانسانية السليمة تتلقى الجميل والاحسان من الاخرين بنفس الطريقة، التي يتلقى فيها الانسان الذين ويعتبر نفسه ملزما بالوفاء وكلمة (الوفاء) هنا ـ وان كانت مفهوما اخلاقيا معروفا، الا ان هذه الكلمة تعني بموجب مدلولها اللغوي رد الجميل والاحسان

(١) بحار الانوار: ٥/٢٦٥.

كما يوفي الانسان الدين تماما.

والعلاقه بين (الجميل) و (الوفاء) كالاواني المستطرقة في الفيزياء، كلما ارتفع مستوى الجميل استتبع ذلك وفاء اعظم واكثر، والاحساس بالوفاء في مقابل الجميل احساس فطري عميق في نفوس الناس جميعا وقد يصدق هذا الاحساس.في بعض الحيوانات ايضا ويشمله الاحساس بالوفاء في مقابل الجميل بدرجة من الدرجات.

ولا شك ان هذا الاحساس والشعور الفطري بالوفاء في عمق فطرةالانسان يستوجب من الانسان الاقرار بالربوبية لله تعالى والعبودية والطاعة والتسليم لله تعالى بشكل فطري.

فان الانسان اذا كان يشعر شعورا فطريا بضرورة الوفاء للمعلم وللوالدين وللصديق فان هذا الشعور الفطري بالوفاء يتضاعف ويتعاظم بالنسبة لله تعالى... فهو مدين له تعالى بكل شيء في وجوده وحركته واعماله، وما اودع الله تعالى فيه من قدرات وكفاءات وامكانات، وفي ارتباطه بالله تعالى وحاجته اليه في الحدوث والخلق وفي الاستمرار والبقاء ايضا.

والحاجة الفطرية التي يحس بها كل انسان في عمق نفسه الى الوفاء لصاحب الجميل والاحسان... تدعو الانسان للتسليم والطاعة والاقرار بالعبودية له تعالى.

كما ان احساس الانسان بالفقر والحاجة الى الله تعالى يدعو الانسان الى اللجوء اليه.

فهناك نزوع فطري-اذن-في نفس الانسان الى الايمان بالمصدر الذي منحه الوجود والحياة وهذا النزوع والميل الفطري يصدق على كل المنتمين الى الاديان حتى المنحرفين منهم، فان انحرافهم عن الله تعالى لا يصادر نزوعهم للايمان بالمبدأ الذي منحهم الوجود، وان انحرفوا في مرحلة التشخيص.

فهناك نزوع فطري في نفس الانسان للوفاء والشكر للمبدأ الذي آتاه الوجود والحياة يتجسد في صورة الطاعة والتسليم، والانقياد، والحب والولاء.

ونزوع فطري في النفس باللجوء الى المبدأ الذي يفتقر اليه ويحتاجه ويغنيه ويعينه في السراء والضراء، يتجسد في صورة الدعاء والتضرع والالتماس، والابتهال.

وكل ذلك يتم بصورة طبيعية في عمق فطرة الانسان دون ان يجد الانسان عناء، او يحتاج الى استخدام العقل والاستدلال والحجج المنطقية.

وهذا الاقرار، والتسليم والحب، واللجوء الذي يتم بصورة فطرية في عمق الذات هو الميثاق الذي تشير اليه الاية الكريمة على هذا الرأي ـ والذي يتم بصورة مباشرة بين الانسان وبين الله تعالى.

وقد ورد في جملة من الاحاديث ان المقصود بالفطرة هي الميثاق الذي تشير اليه آية الميثاق.

روى الشيخ الصدوق في كتاب التوحيد عن عبد الله بن سنان، عن ابي عبد الله عليه السلام قال سألته عن قول الله عزوجل **﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾** ما تلك الفطرة ؟ قال: هي الاسلام فطرهم الله حين اخذ ميثاقهم على التوحيد، فقال **﴿ألست بربكم﴾** وفيه المومن والكافر[1].

اصالة التدين في فطرة الانسان:

ولأمر ما يربط القران الكريم الدين بالميثاق، والميثاق بالفطرة بهذه الصورة، ـ كما نفهمها نحن.. ولا نعلم بالتحقيق كم كانت هذه المسألة تاخذ من اهتمام وتفكير الجاهلية في عصر نزول القران... الا اننا نعلم ان هذه النظرية القرانية تحارب من قبل الجاهلية المعاصرة بصورة قوية.

والتأكيد على ربط الدين بالميثاق، وربط الميثاق بالفطرة في القران الكريم ـ كما نفهم ـ لدحض هذه النظرية الجاهلية في الدين.

والنظرية هي ان (الدين) ظاهرة اجتماعية اضيفت الى الانسان اضافة، واتته

(١) التوحيد للشيخ الاقدم الصدوق ص ٣٢٩ ط قم مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين.

من ظروف معيشتـه، وبيئته، وحضارته، والميراث الحضاري الذي ورثه من اسلافه، وليس الدين امرا نابعا من عمق ذات الانسان.

وكل فئة من فئاة الجاهلية المعاصرة تفسر الدين بهذا الاتجاه على طريقتها الخاصة، فالماركسية مثلا تقول بان الدين نتيجة من نتائج الصراع الطبقي في المجتمع، فلكي تحمي الطبقة المستغلة (بالكسر) نفسها من الطبقة المستغلة (بالفتح) ومن ثورتها وتمردها تحتمي بسلسلة من المؤسسات الاجتماعية تخلقها. وتطورها لهذا الغرض، ومن تلك المؤسسات (الدولة) التي تقوم بحماية مصالح الطبقة المستغلة (بالكسر) من ثورة الطبقة الكادحة.

ومن تلك الموسسات (المؤسسة الدينية) التي تقوم بتخدير الطبقة المستثمرة (بالفتح) لئلا تتجه الى الثوره والتمرد على الطبقة الراسمالية المستغلة .

ومن العجيب ان علماء الماركسية المعاصرين اليوم يقولون ان الاسلام يقود العالم الاسلامي والحركات الثورية المعاصرة ضد الاستغلال...!

ومهما يكن من امر فان الجاهلية المعاصرة تؤكد على مسألة ارتباط الدين بالظروف السياسية والاقتصادية والتناقضات الطبيعية في المجتمع بصور مختلفة. وتجتمع عند مسألة واحدة وهي ان الدين من نتائج واثار الظروف الاجتماعية التي تفرض على الانسان، وليس نابعا من ذات الانسان وداخله.

وهذه المسألة نابعة وتابعة لمسألة اخرى تعتبر هي الاساس لهذه المسألة، وهي ان الإنسان هل يولد مجردا عن أية قيمة انسانية من الدين والاخلاق، وصفحة بيضاء لاتحمل شيئا... والحياة الاجتماعية هي التي تملي عليه الافكار والقيم والاخلاق فتختلف اخلاق الناس وافكارهم وقيمهم باختلاف البيئات والاوساط التي يعيشونها...ام ان الانسان يولد وهو سجل حافل بالقيم والافكار والاخلاق ثم تسجيلها في متن تكوينه وصلب ذاته واعماق نفسه من قبل الولادة، وجاء الى هذه الدنيا وهو حافل بكل هذه القيم والافكار والاخلاق بصورة مسبقة من قبل... وانما

التربية والبيئة ترسخانة فيما هو عليه او تحرفانه عما هو عليه.

اما الاسلام فيذهب الى المذهب الثاني، ويؤمن بان الانسان يولد وهومتكامل الشخصية من حيث المبادىء والاسس، ويحمل في عمق فطرته الاستعداد للقيم والايمان والاخلاق بصورة مسبقة وينمو، وتنمو، وتتكامل معه هذه الاصول، وليس الامر كما يقولون ان الانسان يولد صفحة بيضاء، ثم يملي عليه المحيط والبيئة من الخارج قيمه واخلاقه ومبادئه.

ولعل التعبير القراني التالي يشير الى هذه الحقيقة:

﴿صبغة الله ومن احسن من الله صبغة ونحن له عابدون﴾(١) والصبغة اللون... والقران الكريم قد يشير بذلك الى ان الدين ليس مما اضيف الى شخصية الانسان من الخارج، وانما (التدين) هو اللون الذي صبغ به الله تعالى شخصية الانسان في متن الخلقة وعمق الفطرة والكينونة الانسانية.

والى هذه الحقيقة يشير القران الكريم ايضا في آية الفطرة **﴿فاقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم﴾**.

والاية الكريمة تامر بالتوجه الى (الدين) وانتهاج نهج الدين **﴿فاقم وجهك للدين﴾**.

شريطة ان يكون هذا التوجه عن ميل ونزوع نفسي، اي نابعا من داخل النفس وهو معنى قوله تعالى **﴿حنيفا﴾**.

يقول الراغب في مفرداته: (الحنف ميل عن الضلال الى الاستقامة، والحنيف هو المائل الى ذلك قال عزوجل **﴿قانتا لله حنيفا﴾** وقال: **﴿حنيفا مسلما﴾**.

فالحنيف ـ اذن ـ قريب من معنى الفطرة وياتي بمعنى الميل الى التدين النابع من داخل الذات.

﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾: وهذا الميل الداخلي للتدين والتوجه الى الله تعالى هو الفطرة والتكوين الذي خلق الله الكينونة الانسانية بموجبه..وكان

(١) البقره: ١٣٨.

هذا الميل والنزوع النفسي للتدين ثابتاً في النفس، ونابع من داخل الانسان، وليس امرا يضاف الى شخصية الانسان من الخارج.

٢ـ الميثاق غير المباشر

وهذا قسم اخر من الميثاق يتم بين الله تعالى وبين عباده بواسطة الانبياء، والمخاطب في هذا الميثاق هو العقل، وفي هذا الميثاق يقر الانسان بربوبية الله تعالى، وانه مخلوق مربوب لله تعالى ...

وهذه هي العلاقة التكوينية بين الانسان وبين الله تعالى، والتي يدركها الانسان ويقر بها في متن الميثاق الذي يتم عقده بين الانسان وبين الله تعالى بواسطة الانبياء عليهم السلام.

كما يقر الانسان بحق الله تعالى عليه من الطاعة والتسليم والانقياد له ولرسله..وهذه هي العلاقة التشريعية بين الانسان وبين الله تعالى في متن الميثاق.

والعلاقة الثانية (التشريعية) نابعة وتابعة للعلاقة الاولى (التكوينية)، فاذا كان الله تعالى هو خالق الانسان وربه، وكان الانسان مدينا له في كل شيء، فلا بد ان يكون الامر والحكم لله تعالى في حياة الانسان، ولا بد ان ينقاد الانسان ويستسلم لاحكام الله تعالى استسلاما مطلقا.

وهذه المعادلة بين القضية التكوينية والتشريعية من اوضح المعادلات، يشير اليها القران الكريم في سورة الاعراف:﴿**الا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين**﴾[1]، فاذا كان الخلق لله تعالى فلا بد ان يكون الامر له كذلك، ولن يكون للانسان شيء من امره وحياته وشؤونه، وانما يرجع في ذلك كله الى الله تعالى.

يقول الرازي في تفسير هذه الاية الكريمة:

(واذا كان خالقا لهم كان مالكا لهم، واذا كان مالكاً لهم حسن منه ان يامرهم وينهاهم، لان ذلك تصرف من المالك في ملك نفسه، وذلك مستحسن فقوله سبحانه

(١) الاعراف: ٥٤.

﴿الا له الخلق والامر﴾ يجري مجرى الدليل القاطع على انه يحسن من الله تعالى ان يامر عباده بما شاء كيف يشاء)[١].

فالاقرار بالربوبية لابد ان يستتبعه اقرار بحاكمية الله تعالى.

والميثاق الذي يأخذه الانبياء عليهم السلام من الناس هو الاقرار بربوبية الله تعالى، والاقرار بحاكميته تعالى المطلقة، والاقرار بحق الله تعالى على عباده بالطاعة والتسليم.

وقد ورد ذكر هذا الميثاق في القران الكريم بالنسبة الى المسلمين، والى بني اسرائيل، والى النصارى في سورة المائدة.

يقول تعالى:

﴿واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به اذ قلتم سمعنا واطعْنا واتقوا الله ان الله عليم بذات الصدور﴾[٢].

والخطاب هنا للمسلمين، والميثاق الذي تشير اليه الاية الكريمة ميثاق المسلمين مع الله تعالى.

ومضمون الميثاق هو السمع والطاعة (حاكمية الله تعالى على عباده).

ثم يعقب القران الكريم هذا الميثاق بميثاق بني اسرائيل في نفس السورة وبعد ذكر ميثاق المسلمين.

وهذا الميثاق في مقابل نعم الله تعالى الكثيرة على الانسان، وفي مقدمتها نعمة الوجود والعقل، وتربط الاية الكريمة تذكير الانسان بالميثاق بتذكير الانسان بنعم الله تعالى، فان هذه النعم هي اساس الميثاق، وعلى اساسها يتم الميثاق والزام الانسان به من جانب الله تعالى.

ثم تؤكد الاية الكريمة ارتباط الانسان الشديد بهذا الميثاق بهذه الصيغة

(١) التفسير الكبير للامام الفخر الرازي: ١٢٦/١٤.
(٢) المائدة: ٧.

موحية للانشداد والارتباط الشديد بالعهد والميثاق مع الله ﴿ميثاقكم الذي واثقكم به﴾، وكان هذا الميثاق يشد الانسان بالعهد مع الله تعالى، عهداً او ميثاقاً لايملك الانسان ان يتجاوزه.

ومحور هذا الميثاق هو قوله تعالى ﴿سمعنا واطعنا﴾، وفي هذه الجملة يتلخص الميثاق كله واذا تحقق من الانسان السمع والطاعة لله تعالى فقد تحقق كل شيء من الميثاق، وان لم يتحقق السمع والطاعة فلم يتحقق من الميثاق شيء وهذا السمع والطاعة يجب ان يكون عن ايمان وتقوى وخشية الله تعالى ومالم يكن كذلك فلا ينفع، ولا تخفى على الله تعالى خافية في نفوسنا ﴿واتقوا الله ان الله عليم بذات الصدور﴾.

ثم يعقب القران الكريم هذا الميثاق بميثاق بني اسرائيل في نفس السياق وفي نفس السورة ﴿ولقد اخذ الله ميثاق بني اسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا وقال الله اني معكم لئن اقمتم الصلاة واتيتم الزكوة وامنتم برسلي وعزرتموهم واقرضتم الله قرضا حسنا لا كفرن عنكم سياتكم ولادخلنكم جنات تجري من تحتها الانهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل، فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه﴾[١].

وتتجلى رحمة الله تعالى ببني اسرائيل في هذه الاية الكريمة التي يعلن القران الكريم فيها عن اخذ الميثاق منهم بصورة عجيبة تستوقف الانسان طويلا.

فالميثاق الذي يأخذه الله تعالى من عباده لايستحق الانسان عليه جزاء من الله تعالى، فهو واجب يجب ان يلتزم به في مقابل نعمة الخلق والايجاد، ولكن الله تعالى من فضله بعباده يجزيهم على العمل بالميثاق في الدنيا والاخرة.

والجزاء في هذه الاية الكريمة يأتي في السياق سابقا على الميثاق ولاحقا له تثبيتا لقلوب بني اسرائيل وتطمينا لهم، فيعدهم الله تعالى ـ اولا ـ بمعيته لهم في السراء والضراء، وفي الشدة والرخاء ان عملوا بالميثاق، ويعدهم ان لايفارقهم وان لايحجبهم

(١) المائدة: ١٢ـ ١٣.

عن تأييده ودعمه وتسديده ان عملوا بالميثاق ويأتي ذكر المعية الالهية في سياق الاية الكريمة قبل ذكر الميثاق ﴿**وقال الله اني معكم لئن اقمتم الصلاة**﴾.

ويعدهم بعد ذلك ان يكفر عنهم سيئاتهم ويدخلهم جنات تجري من تحتها الانهار ويأتي ذكر هذا الفصل من الجزاء في السياق بعد ذكر الميثاق وبنوده.

معية الله تعالى في الدنيا والاخرة، وتكفير السيئات ودخول الجنة في الاخرة.. كل ذلك جزاء العمل بالميثاق ولا يستحق الانسان جزاء على الله تعالى في العمل بالميثاق، ولكنه فضل الله تعالى ورحمته الواسعة بعباده.

واما بنود الميثاق فهي:

١ـ اقامة الصلاة

٢ـ وايتاء الزكاة

٣ـ والايمان بالرسل

٤ـ وتعزيز الرسل، فلا يكفي الايمان بالرسل، ان لم يقترن بالنهوض بدعوة الرسل والقيام الى جنبهم، ونصرتهم ودعمهم.

٥ـ واقراض الله قرضا حسنا، والعبد وما يملك لمولاه ما في ذلك شك ولا ترديد، ولكن الله تعالى يطلب من عباده ان يقرضوه قرضا حسنا، فيرد لهم في الدنيا والاخرة ويضاعفه لهم.

ذلك هو الميثاق الذي اخذ الله تعالى من بني اسرائيل فلما اخلوا بالميثاق عاقبهم الله تعالى على ذلك عقابا صعباً.

فلعنهم وطردهم من ساحة رحمته الواسعة التي تسع كل شيء (لعناهم).

وجعل قلوبهم قاسية ومنغلقة على هداية الله تعالى ورحمته، وسلب من قلوبهم الرقة والرحمة والانعطاف الى الهدى ﴿**وجعلنا قلوبهم قاسية**﴾.

وعند ذلك فقد اخذوا يحرفون الكلم عن مواضعه، ويتلاعبون بكتاب الله وعهده وميثاقه.

ثم يعقب القـران الكـريم في نفس السياق، وفي نفس السورة هذا الميثاق بالميثاق الذي اخذه الله تعالى من النصارى.

﴿ومن الذين قالوا انا نصارى اخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فاغرينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون﴾(١).

وكذلك اخذالله تعالى هذا الميثاق من النصارى من امة المسيح بن مريم ـ عليه السلام ـ فلما نسوا حظا مما اخذ الله منهم من الميثاق انتزع من قلوبهم المحبة والمودة، وابدلها في نفوسهم بالعداوة والبغضاء الى يوم القيامة.

وما يستقبلهم من عذاب الله تعالى وعقابه الاليم يوم القيامة اشد وآلم.

وفي سورة ال عمران ـ ٨١ ـ ٨٥ نلتقي بهذا الميثاق الاهي الشامل ذي الابعاد الثلاثة.

﴿واذ اخـذ الله ميثاق النبيين لما اتيتكم من كتاب وحكمة، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتومنن به، ولتنصرنه قال:ءااقررتم:واخذتم على ذلكم اصري؟ قالوا اقررنا قال: فاشهدوا وانا معكم من الشاهدين، فمن تولى بعد ذلك فاولئك هم الفاسقون افغير دين الله يبغون وله اسلم من في السماوات و الارض طوعا وكرها واليه يرجعون، قل امنا بالله، وما انزل علينا، وما انزل على ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وما اوتي موسى، وعيسى والنبيون من ربهم، لانفرق بين احد منهم، ونحن له مسلمون، ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه، وهو في الاخرة من الخاسرين﴾(٢).

والبعد الاول في هذا الميثاق الاهي الشامل هو الالتزام بما انزل الله تعالى على انبيائه من كتاب وحكمه، وهذا البعد وان لم يكن مقصودا مباشرا في الكلام ولكنه

(١) المائدة: ١٤.
(٢) ال عمران: ٨١ ـ ٨٥.

يفهم من ضمن السياق.

والبعد الثاني الايمان بمن يأتي من بعدهم من الانبياء وهذا الخطاب وان كان بظاهره يقصد به الانبياء عليهم السلام، الا ان المقصود الحقيقي في الخطاب بقرينة ما يأتي هو الامم الذين ارسل الله تعالى اليهم الانبياء بالكتاب والحكمة.

والاية الكريمة تخبر ان الله تعالى طلب من اولئك الامم ان لا يقتصروا على الايمان والتصديق بالذين ارسلهم الله تعالى من الانبياء، وانما يجب عليهم الى جانب ذلك ان يؤمنوا بمن يأتي من بعدهم من الانبياء، وامارة صدقهم في رسالتهم من الله انهم لاينقضون رسالة من قبلهم من الانبياء مما انزل الله عليهم، ومما معهم من جانب الله تعالى من كتاب وحكمة....

فهي شريعة واحدة وخط واحد، وامتداد واحد، ضمن مراحل، كل مرحلة منها يصدق ما سبق من المراحل، ولايمكن ان تتناقض هذه المراحل وتتضارب، ولا يمكن ان يختلف هولاء الانبياء بعضهم مع بعض، فهم يصدرون من نبع واحد، ويتصلون بمبدأ واحد، فاذا تصادقوا واتفقوا وصدق بعضهم بعضا فهو امارة صدقهم جميعا.

وعند ذلك يجب على المومنين الايمان بهم جميعا، وعدم التفكيك في الايمان بين نبي ونبي، ومرحلة واخرى في تاريخ الرسالات... فما دام هولاء الانبياء كلهم من جانب الله فلا يجوز التفريق فيما بينهم، وقبول بعضهم ورد البعض.

ولا يقتصر الامر على الايمان بخصوص من يأتي من الانبياء، وانما يجب ان يقترن هذا الايمان بالعمل على نصرتهم وتأييدهم، كما ينصرون انبياءهم تماما.

﴿واذ اخذ الله ميثاق النبيين لما اتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتومنن به ولتنصرنه﴾.

فقد اخذ الله ميثاق النبيين مهما اتاهم من كتاب وحكمة ثم جاءهم من بعده رسول يصدق ما معهم من كتاب وحكمة فعليهم ان يومنوا به وينصروه، وقد شدد الله تعالى على الانبياء واممهم في الاقرار بهذا البعد الاساسي في الميثاق تشديدا مؤكدا

واشهد الانبياء على اقرار اممهم بهذا الميثاق، واعلن الله تعالى لانبيائه عن شهادته بذلك، وعد هذا الميثاق عِهداً له تعالى على عباده ﴿قال ءااقررتم واخذتم على ذلك أصري﴾. والاصر هو العهد قالوا: اقررنا.

وعند ذلك اشهدهم الله تعالى على اممهم، واعلن لهم انه معهم من الشاهدين ﴿قال: فاشهدوا وانا معكم من الشاهدين﴾، وهذا الاشهاد امارة ان المخاطب الحقيقي المقصود منن هذا الخطاب هو الامم وليس الانبياء، وانما يخاطب الله تعالى بواسطتهم اممهم، ولذلك اشهدهم على اممهم.

وقد اكد الله تعالى هذا الميثاق وشدد في الاخذ به، وَعد ذلك عهده واصره، واخذ الاقرار من الامم على لسان انبيائهم على ذلك، ثم اشهدهم على اممهم، واعلن انه معهم من الشاهدين.

وهو اكثر ما يمكن من تشديد في ميثاق.

وهذا التشديد في هذا البعد من ابعاد الميثاق يكشف عن الاهمية البالغة لهذا البعد من ابعاد الميثاق، فهذا الدين شريعة واحدة وخط واحد كما ذكرنا، وينبع من نبع واحد، واي تفريق بين اجزاء مراحل هذا الدين يعد من الرفض له والاعراض عنه، فليس للانسان المومن خيار في الاخذ بشطر من هذا الدين ورفض شطر اخر منه، فهو اما ان ياخذ به جميعه وفي جميع مراحله من دون تفريق وتفكيك فهو من المؤمنين، واما ان يرفضه جميعا او شطر منه فهو من الفاسقين ﴿فمن تولى بعد ذلك فاولئك هم الفاسقون﴾.

وتؤكد الاية الكريمة بعد ذلك هذه الحقيقة في وحدة نسيج الدين في جميع مراحله بهذه الجملة البليغة ﴿افغير دين الله يبغون، وله اسلم من في السماوات والارض طوعا وكرها واليه يرجعون﴾.

والبعد الثالث لهذا الميثاق هو البعد العمقي الضارب في اعماق التاريخ، فكما يجب ان نربط الحاضر بالمستقبل في هذا الميثاق كذلك يجب ان نربط الحاضر بالماضي،

والحاضر والماضي والمستقبل في هذا الميثاق اجزاء من نسيج واحد لايجوز تفكيك بعضها عن بعض ولا التفريق فيما بينها، ولا يجوز فصل اعماق هذا الدين وجذوره عن فروعه واغصانه وثمراته، فهو في مراحل التاريخ المختلفة كل مترابط، ووحدة متناسقة، يصدق بعضه بعضا، ويشكل جميعه وحدة حضارية ربانية على وجه الارض.

فاسمع اليه تعالى كيف يوجه نبيه (صلّى الله عليه وآله) في ختام هذه الاية المباركة ان يوجه امته الى الايمان بما انزل على ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط، وما اوتي موسى وعيسى من ربهم الى جانب ايمانهم بما انزل الله تعالى عليه (صلّى الله عليه وآله) من كتاب وحكمة، من دون تفريق ولا تفكيك، والتسليم لهم جميعا.

﴿قل امنا بالله، و ما انزل علينا، وما انزل على ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وما اوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لانفرق بين احد منهم، ونحن له مسلمون﴾.

ثم اسمع الى هذه النهاية البليغة التي تعطي الحكم الحاسم من جانب الله تعالى في هذه القضيه الرسالية الاساسية في حياة الانسان:

﴿ومن يبتغ غير الاسلام دينا، فلن يقبل منه، وهو في الاخرة من الخاسرين﴾.

فهذا هو الاسلام دينا، كل مترابط، يرتبط حاضره بماضيه، ويرتبط ماضيه بمستقبله، والكل يشكل وحدة حضارية ربانية في حياة الانسان، بعضه يتصل ببعض، وبعضه يصدق بعضا ليس بين اجزاءه تضارب او تناقض، فمن يقبل به كله فهو من المسلمين، ومن يريد ان يفرق ويفكك فهو ممن يبتغي غير الاسلام دينا، وهو من الخاسرين.

* * *

ومرة أخرى نعود الى ما اخذ الله تعالى من بني اسرائيل من ميثاق.

وفي سورة البقرة يذكرهم القران الكريم بهذا الميثاق الذي اخذه منهم موسى ـ عليه السلام ـ بفقراته العشرة:

﴿واذ اخذنا ميثاق بني اسرائيل لاتعبدون الا الله وبالوالدين احسانا وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا، واقيموا الصلاة واتوا الزكاة ثم توليتم الا قليلا منكم، وانتم معرضون واذ اخذنا ميثاقكم، لاتسفكون دماءكم ولا تخرجون انفسكم من دياركم ثم اقررتم وانتم تشهدون﴾[١].

(١) البقرة: ٨٣ ـ ٨٤.

القيمة التشريعية للميثاق

السـؤال عن قيمـة الميثاق من الناحية الشرعية من اهم الاسئلة التي تواجهنا في دراسة الميثاق.

فان القران الكريم يربط الطاعة والالتزام والانقياد لله تعالى ورسله، وكتبه واحكامه بهذا الميثاق، ويعتبر هذا الميثاق اساسا لكل التزامات الانسان المسلم.

وهنا يواجهنا سوالان بخصوص القيمة الشرعية للميثاق.

السؤال الاول: عن سبب الالزام باصل الميثاق، فما دام الميثاق هو الاساس للالتزامات الشرعية في حياة الانسان فما هو الملزم للانسان في الدخول في هذا الميثاق، فمن الممكن ان لايدخل في الميثاق من الاول، ولا يعطى موثقا وعهدا، ومن ثم لايكون ملزما بشيء من هذه الالتزامات.

والسؤال الثاني: عن قيمة الميثاق من حيث الالزام والالتزام، وما يترتب على هذا العهد والميثاق من الزام والتزام، وبتعبير اخر كيف يكون الميثاق ملزما للانسان بالطاعة.

* * *

ضرورة الدخول في الميثاق والعهد:

بخصوص السؤال الاول ذكرنا ان محتوى الميثاق اقرار بالعلاقة التكوينية بين الانسان وبين الله تعالى، ويستتبع هذا الاقرار اقرارا اخر بحاكمية الله تعالى، وحقه على العباد في الطاعة والتسليم.

وسرّ الالزام في الدخول في الميثاق ينطوي في هاتين القضيّتين واليك تفصيلا لهذا الاجمال ضمن النقاط التالية:

١ـ الانذار:

ان من مهمة الانبياء عليهم السلام انذار الناس باليوم الاخر، و بعذاب الله تعالى للذين لايومنون بالله.

﴿ولقد ارسلنا نوحا الى قومه اني لكم نذير مبين﴾.(١)

﴿قل يا ايها الناس انما انا لكم نذير مبين﴾.(٢)

﴿ان هو الانذير لكم بين يدي عذاب شديد﴾.(٣)

﴿ان من امة الا خلا فيها نذير﴾.(٤)

﴿ففروا الى الله اني لكم منه نذير مبين﴾.(٥)

هذا الانذار الشديد والمتواصل، والذي يتعلق بمصيرالانسان وسعادته وتتعاقب عليه الاجيال، جيلا بعد جيل، يتطلب من الانسان ـ بضرورة العقل ـ ان لا يهمل ـ مثل هذه القضية الاساسية والمصيرية في حياته، ويعطها اهتماما كبيرا، ويتوجه اليها

(١) هود: ٢٥ .
(٢) الحج: ٤٩ .
(٣) سبا: ٤٦ .
(٤) فاطر: ٢٤ .
(٥) الذاريات: ٥٠ .

بكل همه وجهده.

وهـذه الضرورة ــــــــــــــ العقلية، لا سبيل الى انكارها ويحكم العقل في حالات دون هذه الحالة بكثير بضرورة الاهتمام والبحث والتحري كما لو انـذر الـطبيب مريضا بخطورة المرض، فان العقل يلزمه بشكل حتمي بالمراجعة والفحص الطبي، ولا يسمح له بالاهمال والمسامحة.

فكيف اذا توالى هذا العدد الغفير من الانبياء والمرسلين والاولياء والصادقين واصحـاب البصيرة من النـاس على مسألة خطيرة وذات بال ومصيرية في حياة الانسان من هذا القبيل.

٢ـ وجوب البحث والتحري:

فاذن، في المرحلة الاولى يواجه الانسان حكما عقليا الزاميا نابعا من ذاته بضرورة التحري والبحث الصادق.

وهذا التحري والبحث ينتهي بالانسان الى نتيجـة قطعية، وهي الايمان بالله تعالى ربا وخالقا، للانسان وللكون.

فان الذي يحجب الانسان عن الايمان بالله تعالى هو احد امرين لاثالث لهما، وهما الغفلة والاهمال، او العناد واللجاج.

وعندما ينتفي هذان الامران ويواجه الانسان هذا الحكم العقلي الملح بضرورة التحـري والبحث، ويواجه ايات الله تعالى في الكون ونظام الخلق بالتأمل والتدبير وبنظرة متأملة صادقة لا يمكن ان يصل الى غير هذه النتيجة.

وهذه هي القضية التكوينية الاولى في علاقة الانسان بالله تعالى[1].

(١) ومؤدى هذه القضية هي: حكم (العقل العملي) بضرورة البحث والتحري وحكم (العقل النظري) بربوبية الله تعالى، وهذان الحكمان يقعان في رتبة سابقة على (الحكم الشرعي) اما الحكم العقلي بضرورة الطاعة والالتزام باحكام الله فيقع في مرحلة متأخرة عن الحكم الشرعي وفي طول الحكم الشرعي كما يقول علماء الاصول.

٣ـ وجوب الطاعة والتسليم لله تعالى:

ويستتبع هذه القضية الايمان بربوبية الله تعالى الذي هو مؤدى حكم العقل النظري حكما عقليا (من سنخ احكام العقل العملي) بضرورة الطاعة والالتزام بحاكمية الله تعالى، والاستسلام لله تعالى في الطاعة والانقياد المطلق فان الانسان عندما يكون مدينا لله تعالى في كل شيء وملكا له، وفي دائرة ملكه وسلطانه، وذلك بموجب الايمان بربوبية الله لايملك الا التسليم له والطاعة. ووجوب الطاعة والتسليم والانقياد لحاكمية الله حكم عقلي جازم[1] لايتردد فيه الانسان، وهذا الحكم من احكام (العقل العملي) النابع من حكم العقل النظري بربوبية الله تعالى.

وهذه هي العلاقة التشريعية بين الانسان وبين الله تعالى، وهذه العلاقة التشريعية نابعة من العلاقة التكوينية السابقة، والتي كان قوامها ربوبية الله تعالى للانسان.

فالعقل اذن: هو الذي يلزم الانسان بالاقرار بالربوبية، والطاعة وعقد الميثاق مع الله تعالى، وليس للانسان خيار بحكم العقل تجاه هذا الميثاق، ولا يملك الانسان ان يتخلف عن الميثاق كما لا يملك ان يتحرر منه.

وبهذا الشرح فان الدخول في اصل الميثاق يتم بحكم العقل الالزامي الذي لايسع الانسان مخالفته والتحرر منه.

وهذا هو الجواب عن السؤال الاول وهو السؤال عن الاسباب الملزمة للانسان في الدخول في اصل الميثاق.

(١) من سنخ احكام (العقل العملي) الا ان هذا الحكم يقع في طول الاحكام الشرعية والكتاب والسنة، وفي مرحلة متأخرة عنها بعكس حكم العقل العملي والنظري في المرحلة السابقة فانه كان في مرحلة متقدمة على الحكم الشرعي.

كيف يكون الميثاق مصدرا للالزام والالتزام:

اما السؤال الثاني فهو ينشطر الى شطرين في الشطر الاول منه نتساءل كيف يكـون الميثاق مصدرا للالزام والالتزام،وفي الشطر الثاني نتساءل عما لو كان هناك مصدر للالزام والالتزام في حياة الانسان من غير (الميثاق).

اما فيما يتعلق بالشطر الاول من السؤال فان الميثاق يقوم على اساس الاقرار بربوبية الله تعالى وملكه لعباده وما في ايديهم، وهو يستتبع بالطبع اقرار الانسان على نفسه بانه مخلوق ومربوب لله تعالى والاقرار بهذه العلاقة التكوينية يستتبع اقرارا بعلاقة تشريعية هي الاقرار بولاية الله تعالى عليه وسلطانه التشريعي وحق الله تعالى عليه في الطاعة والتسليم.

فيقـر الانسـان بان موضعه من الله تعالى موضع العبودية، وان هذا الموضع يستتبع حق الولاية من الله تعالى عليه وحق الطاعة بشكل قهري، ولا سبيل له الى الهروب من شيء من هذه المقدمات، والنتائج الحتمية التي تؤدي اليه هذه المقدمات.

وفي كل هذه المراحل فان الانسان هو الذي يقر على نفسه، ويلزم نفسه ـ عن طريق الفطرة او العقل ـ بالعبودية والطاعة.

واقرار الانسان على نفسه حجة قطعية.

ولا سبيل له الى الهروب والتحلل عن المقدمات التي تؤدي الى هذا الاقرار، ولا عن الاقرار نفسه الذي تؤدي اليه تلك المقدمات، ولا عن نتيجة هذا الاقرار، التي تلزمه بالطاعة وتحمله تبعات المخالفة.

وهذا الالتزام يحمّل الانسان مسؤولية الاسلام، والتسليم بكل حدود الله تعالى وتشريعاته واحكامه واوامره ونواهيه بصورة مطلقة.

* * *

هل هناك مصدر اخر للالزام غير الميثاق؟

والسؤال الاخر بهذا الصدد عن وجود مصدر للالزام والالتزام في الشريعة من غير طريق (الميثاق)، فهل يوجد مصدر آخر غير الميثاق للالزام والالتزام في دين الله، ام ان الميثاق هو المصدر الوحيد لذلك؟

قد يقول احد ان موقع الولاية المولوية يكفي في الالزام دون حاجة الى اقرار وميثاق ولما كان موقع الالوهية هو موقع الولاية الحقيقية والتكوينية بالنسبة للعباد فلا يحتاج الامر في الزام الناس بالتسليم الى ميثاق واقرار من جانب العباد، فيصح عقلا الزام العباد بالانقياد مع غض النظر عن الاقرار والميثاق.

واذا صح هذا الكلام من الناحية العلمية فان هناك اكثر من مصدر للتسليم والانقياد في الشريعة، وفي حالة عدم صحة هذا الكلام يبقى (الميثاق) هوالمصدر الوحيد للالزام والالتزام في دين الله.

ولتوضيح الجواب نقول: ان التسليم والانقياد يتم على شكلين:

الطاعة والكره:

يقول تعالى: ﴿وله اسلم من في السماوات والارض طوعا وكرها﴾[١].

والطوع هو الانقياد والتسليم بالارادة في مقابل الكره الذي هو التسليم من دون رغبة واراده.

يقول الراغب الاصفهاني في مفردات القران «الطوع والانقياد ويضاده الكره».

فالانسان الراشد يقبل العلاج من الطبيب عن طوع، ويقال انه اطاع الطبيب، بينما يكره الطفل على تناول الدواء ويفرض عليه.

والطوع والكره كلاهما موجودان في حياة الانسان: الطاعة في الامور التشريعية التي يتعهد الانسان فيها بالانقياد والتسليم فينفذها عن ارادة، والكره في

(١) آل عمران: ٨٢.

الامـور التكـوينية التي تفـرض على الانسان بارادة الله تعالى، فرضا، ولا يكون للانسان سبيل لردها، فيقبله عن كره، ومن غير ارادة كالابتلاء بالمرض والفقر وسائر الابتلاءآت التي يستسلم لها الانسان عن كره.

وفي النظام التشريعي الذي وضعه الله تعالى للعباد لاسبيل الى الثاني **﴿لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾**[1].

وانما يقوم النظام التشريعي على اساس الطاعة فقط ولا يمكن ان يتم بغير الطاعة وبغير الميثاق والاقرار والالتزام بالمعنى الذي تحدثنا عنه في معني الميثاق.

والولاية الواقعية التكوينية بوجودها الواقعي لاتصحح الزام المكلف بالاوامر والنواهي مالم يسبق من المكلف ميثاق وعهدواقرار بالربوبية والمولوية لله تعالى.

فاذا اقر الانسان بالربوبية والولاية لله تعالى، واعطى الميثاق صح تكليفه عند ذلك، وصح الزامه بما التزم به من قبل في الميثاق والاقرار وصح عقابه على المخالفة، والافلا يصح شيء من ذلك.

ونقصد بـ (النظام التشريعي) الدورة التشريعية الكاملة التي تبدأ بالتكليف وتنتهي الى العقوبة والمؤاخذة في الدنيا والاخرة على المخالفة والثواب والجزاء على الامتثال والطاعة في الدنيا والاخرة كذلك.

في مثل هذا (النظام التشريعي) لايمكن التكليف والالزام من دون الاقرار والتعهد والميثاق، بالشكل الذي شرحناه في الميثاق المباشر وغير المباشر.. فلا يمكن عقوبة انسان على المخالفة مالم يسبق منه عهد وميثاق واقرار بالربوبية والمولوية لله تعالى... ولا يصح اعمال الولاية دون ان يكون الطرف الاخر (المولّى عليه) مقرا بهذه الولاية.

وبتعبير اخر:ان الولاية بوجودها الحقيقي لا تكفي في الالزام والتكليف، وانما لابد ان ينضم الى هذا الوجود الحقيقي وجود علمي للولاية في نفس الانسان، بمعنى الاقرار بالولاية والاعتراف بها، وعند ذلك يصح اعمال هذه الولاية فقط.

(١) البقره: ٢٥٦.

ولنفتح هذا الموضوع اكثر من هذا الحد، يقول علماء الاصول: ان الطلب لايكون (امرا) وملزما مالم يكن من جهة عليا، ومن العالي الى الداني، والا فلا يكون الاّ طلباً غير ملزم للطرف الاخر بالتنفيذ[1].

وهذا ما يقوله علماء الاصول، ويقصدون بالعلو (الولاية).

ونحن نضيف الى ما يقول علماء الاصول ان هذا العلو لا يكفي بوجوده الحقيقي ليكون الطلب امرا ملزما، وانما لابد ان ينضم الى ذلك الوجود العلمي للعلو والولاية.. ونعني بذلك علم الانسان واقراره بهذا العلو وهذه الولاية.

ومن دون هذا العلم والاقرار لا يكتسب (الطلب) صفة (الامر) و(الالزام) فلو فرضنا ان دائرة من الدوائر الرسمية تغير رئيسها، وترك الرئيس السابق محله وجاء الرئيس الجديد للدائرة، وقبل ان يعرف نفسه، ويكشف عن صفته الادارية، ويثبت انه الرئيس الجديد لهذه الدائرة .... اصدر تعليمات مختلفة الى الموظفين في الدائرة... فمما لاشك فيه ان هذه التعليمات لاتكتسب صفة الاوامر، ولن تكون ملزمة للموظفين، ويجوزلهم المخالفة وعدم الانصياع مالم يعرفوا صفته الرسمية في هذه الدائرة، فاذا ثبت لهم بالطرق المعروفة صفته الادارية الجديدة وجبت عليهم من حينه الطاعة والالتزام، ولا تحق له معاقبتهم ولا مؤاخذتهم على المخالفة قبل اثبات هويته الادارية.. رغم انه كان رئيسا شرعيا لهذه الدائرة قبل الاثبات حقيقة ولكن الوجود الحقيقي للولاية والرئاسة غير كاف في الالتزام ووجوب الطاعة، ولابد في الالزام والطاعة من الوجود العلمي للولاية والرئاسة ايضا الى جانب الولاية الحقيقية.

ولكي لا تبقي ثغرة في هذا العرض نقول: ان الولاية على الصغار والسفهاء والمجانين، والتي تتم بموجب الشريعة من دون علم واقرار وميثاق من طرف الصغار والسفهاء لا يكون ناقضا للقاعدة التي شرحناها.

فان هذه القيمومة تتم بناء على مصلحة هؤلاء الضعفاء الذين لايجوز ايكال

(١) ان الم تكن من ورائه مصلحة ملزمة، وهذا باب اخر غير باب الولاية.

امرهم الى انفسهم، ولا يجوز تسليطهم على اموالهم وممتلكاتهم خشية الضياع والتلف.

ومصلحة هولاء الضعفاء تتطلب من الشارع ايكال امورهم الى القيمين عليهم لحمايتهم وحفظ مصالحهم، كما يتم ايكال امر الدواب الى اصحابها لحمايتها وحماية المصالح الاجتماعية المتوقفة عليها.

وليس مثل هولاء مثل العقلاء الراشدين والناضجين الذين يخضعون للنظام التشريعي، ولذلك لو خالف الطفل الصغير او السفيه او المجنون لا تجوز عقوبته على المخالفه وما يقوم به الاولياء من ضرب الاطفال غير الراشدين ليس للعقوبه وانما للتأديب فقط.

فلا يدخل الضعفاء من الناس من الصغار غير الراشيدين والسفهاء والمجانين في دورة النظام التشريعي المتكامل بهذا المعنى.

* * *

وعليه فلا بد في التكليف والطاعة من سبق الميثاق والاقرار، ولا يمكن ان نتعقل (نظاما تشريعيا) لا يقوم على الميثاق والاقرار.

وهذا الميثاق والاقرار هو الحجر الاساس الوحيد الذي يقوم عليه الدين وما فيه من تعليمات واحكام وحدود وتشريعات ومنهاج.

واذا كانت طريقة الحوار التي يحكيها القران الكريم لهذا الميثاق بصورتية المباشرة الفطرية وغير المباشرة العقلية طريقة رمزية في اغلب الظن للتعبير عن استجابة الانسان لربوبية الله تعالى وحاكميته بالفطرة والعقل.. فمما لاشك فيه ان هذه الاستجابة والتعهد والاقرار يجري من جانب الانسان فطريا وفي عمق الذات بصورة طبيعية، ويجري في العقل حسب الخطوات التي شرحناها قريباً ان لم يحجب العقل حجاب من الغفلة او اللجاج، والامر فيهما الى الانسان ولا يعذر بهما من الامتناع عن الاستجابة.

القيمة الشرعية للميثاق في الانظمة الوضعية

شرحنـا ـ فيما سبق ـ القيمـة الشـرعية للميثـاق في الاسـلام... وعرفناالطريقة التي يأخذ بها الله تعالى الميثاق من العباد، عن طريق الفطرة وعن طريق العقل، وبصورة مباشرة وغير مباشرة.

اما المـذاهب الـوضعية فتـواجه مشكلة حقيقية في صلة المواطن بالقانون وبـالدولة، ومن توجيه سيادة الحاكم والقانون على المواطن، وفي القيمة الالزامية للقوانين والتعليمات الصادرة من طرف الهيئة التشريعية والتنفيذية والقضائيه في الدولة.

واذا تجاوزنا الطريقة التعسفية التي تستخدمها الانظمة الدكتاتورية في الزام المواطن بالطاعة فان علم (الفلسفة السياسية) لايكاد ان يجد سبيلا علميا في توجيه وتفسير حق الدولة في فرض القانون والنظام والسيادة على المواطن، ولا يملك توجيها معقولا لسيادة الدولة على المواطنين.

وافضل المحاولات في توجيه شرعية سيادة الدولة على المواطنين هو التوجيه القائم على نظرية (العقدالاجتماعي) في النظام الديمقراطي.

وسوف نجد ان نظرية (العقدالاجتماعي) لاتستطيع ان تقدم توجيها علمياً

مقبولا لسيادة الدولة والقانون على المواطن.

وهو وحده يكفي دليلا على سيادة (الدين) على الانسان، فلا بد لنظم حياة الانسان من الطاعة والالزام والالتزام، والنظام الوحيد الذي يستطيع ان يقدم تصورا كاملا عن السيادة والالزام والالتزام في حياة الانسان هو (الدين).

* * *

مبدأ القوة:

ومهما يكن من امر فقد كان المبدأ السائد في (السيادة) في الانظمة الوضعية هو القوة، وكان الحكام يرون ان القوة تمنحهم شرعية السيادة وتعطيهم الحق في الزام المواطن.

وكان البعض يسبغ على هذه الحالة صفة الشرعية من حيث خلافة الله تعالى، فكان يرى ان الحاكم الذي تتم له السيطرة على البلد خليفة الله تعالى على عباده، ولم يتم له هذا السلطان الا بارادة الله واختياره، وقوة السلطان امارة هذا الاختيار.

ولسنا بحاجة الى نقد هذه النظرية، وانما نقتصر على النقد الذي نقد به جان جاك روسو نظرية القوة.

يقول روسو:

القدرة هي قوة فيزياوية، ولا استطيع ان اقنع بان للقوة اثر اخلاقي (وقانوني) والانقياد والتسليم للقوة امر يتسع الضرورة، وليس يتسع الارادة، ولا يمكن اعتبار هذا الانقياد والتسليم للقوة وظيفة ومسؤولية.

ولنفترض ـ جدلا ـ ان القوة توجد لصاحبها الحق في السيادة.. فان نتيجة هذا الافتراض سوف تكون نتيجة غريبة، وسوف يؤدي اي تمرد على القوة الحاكمة في حالة توفيقه في اضعاف وسحق القوة السابقة الى انتقال الحق من القدرة السابقة الى القدرة الجديدة، واي تمرد ناجح على النظام يستحدث حقا جديدا ويبطل الحق

الذي كان يملكه النظام السابق في السيادة والكحم واذا قبلنا بان الحق يتبع القوة فان نتيجة ذلك هو ان يسعى كل واحد الى امتلاك القوة... ولا ادري اي حق هذا الحق الذي يزول بزوال القوة[١].

مبدأ المصلحة الاجتماعية:

والنـظرية الاخرى في توجيه حق الدولة في السيادة والزام المواطنين على الطاعة هي نظرية (المصلحة الاجتماعية) وخلاصة هذا الرأي ضرورة وجود النظام في حياة النـاس، وضرورة تحديد الحريات ليستطيع الجميع الانتفاع بالحرية دون ان تتضارب حرية انسان باخر، ودون ان تؤدي حرية انسان الى سلب حرية الاخرين... وهـذه المصلحـة الاجتماعية تتطلب قيام نظام سياسي يتولى تنظيم الناس وتحديد حريات الناس وتوفير الامن للناس جميعا.

ويقول الفيلسوف الانكليزي هارولدج لاسكي في كتابه (مقدمة علي السياسة) بعد ان يستعرض نقودا عديدة على نظرية (العقد الاجتماعي):

مهمة الدولة تنظيم حياة الناس ومهمة القائمين بالدولة الزام الناس على طريقة معينة.

وعمل الدولة ـ بذلك ـ يشكل الزاما قانونيا لا يحق للمواطن مخالفته.

لماذا تمتلك الدولة هذه القدرة ومن اي مصدر؟

من الصعب الاجابة على هذا السؤال الا على الاسس العملية (المصلحة).

وبامكاننا فقط ان نوجه شرعية الدولة بموجب الاعمال والاهداف التي تسعى الى تحقيقها.

تتحكم الدولة على مجموعة من المصالح المتنافسة والمتضاربة وتقوم شرعية حق

(١) العقد الاجتماعي: جان جاك روسو:
الكتاب الاول: الفصل الثالث.

الدولة بالزام الناس على الطاعة فقط على اساس تحقيق هذا الهدف (تنظيم حياة الناس) بصورة متزايده)[١].

وهذا الاتجاه اتجاه غريب في توجيه شرعية الدولة، فان الضرورة والمصلحة الاجتماعية تكشفان عن وجود شرعية وجود الدولة والنظام في المجتمع، ولاتشخصان هذه الشرعية في هذه الهيئة الحاكمة او تلك.

ومثل ذلك ان نقول ان المصلحة الاجتماعية فياصلاح ارض زراعية وحرثها وسقيها تبرر للغاصب انتزاع الارض من صاحبها الشرعي للقيام باعمارها واصلاحها.

ان ضرورة اصلاح الارض لا تصنع الملكية ـ وانما الحق الشرعي فقط هو الذي يصنع الملكية، وضرورة اصلاح الارض تلزم مالكها الشرعي بامر الاصلاح فقط.

وكذلك ضرورة تربية الاطفال القصر وحفظهم وحفظ اموالهم لاتسمح لاي انسان ان يضع يده على ممتلكات القصر لغرض ادارتها وحفظها، وانما تكشف هذه الضرورة فقط عن ضرورة وجود ولاية على الاطفال القصر، والمصلحة لاتشخص هذه الولاية في هذا او ذاك، وانما تتشخص الولاية من خلال القنوات الشرعية فقط كالوالد والجد وغيرهما.

فلا يسمح القانون لاحد ان يضع يده على ممتلكات طفل قاصر لغرض حفظها وحمايتها مالم تكن لهذه اليد ولاية شرعية، سواء كان صادقا في ادعائه او كاذبا وهذه الولاية لا تصنعها المصلحة وانما يصنعها (حق الولاية) من خلال القنوات الشرعية المعروفة.

ووجود السيادة وحق الالزام ضروري في المجتمع، لا يمكن ان تنتظم حياة المجتمع من دونه، ولكن هذه الضرورة والمصلحة لا تعطيان الشرعية للهيئة الحاكمة التي تتعهد بتوفير هذه المصلحة مالم تملك الحق الشرعي في الولاية.

(١) مقدمة على السياسية تأليف هارولدج دسكي الفصل الاول البند الثالث.

والسؤال انما هو عن المصدر الشرعي لحق الدولة في السيادة والزام المواطن.

والجواب الذي يعطيه هارولدج لاسكي في الحقيقة جواب لسؤال اخر يتعلق بضرورة واهمية وفائدة وجود الدولة... وهو امر لايناقش فيه احد، ومن الغريب الخلط بين هذين السؤالين في الجواب.

نظرية العقد الاجتماعي

اما النظرية السائدة اليوم ومنذ القرن الثامن عشر الميلادي في الغرب في شرعية سيادة الدولة فهي نظرية (العقد الاجتماعي).

فقد ظهر في هذا القرن اتجاه جديد في الفكر السياسي نتيجة الاستبداد السياسي الذي كانت تمارسه العوائل الحاكمة في اوروبا.

وهذا الاتجاه هو (سيادة الشعب) واعتبار الشعب مصدرا شرعيا للسيادة والتشريع وارجاع كافة الحقوق الى الشعب.... واعتبار الدولة (الحكومة) ممثلة للشعب فقط... فتكون الدولة نائبة عن الشعب في التشريع والتنفيذ.

وتأتي سلطة الدولة من ناحية الناس، وتتحدد بذلك صلاحية الحكومات وتضيق دائرة سلطانهم بالحدود التي يسمح بها الرأي العام.

ونحن نحتفظ هنا بحقنا في السؤال عن شرعية سلطة الشعب، ومن اين جاءت هذه السلطة والسيادة والولاية للشعب، وكيف اكتسب هذه الولاية ؟... فهذا سؤال نطرحه فيما بعد.

ونتساءل فقط عن الطريقة التي يتم بها تخويل الهيئة الحاكمة بالسلطة والسيادة من جانب الشعب، وكيف تم نقل السلطة والسيادة من الشعب الى الدولة[1].

وللاجابة على هذا السؤال يطرح الفكر السياسي في الغرب مشروع (العقد

(١) (الدولة) في المصطلح السياسي غير (الحكومة)، و (الهيئة الحاكمة) ونحن نقصد بالدولة هنا (الهيئة الحاكمة) و (الحكومة)، ونتسامح في استعمال هذه الكلمة في موضع الحكومة لشيوع استعمالها في هذا المعنى.

الاجتماعي).

وهذه الاطروحة ظهرت لاول مرة على يد (توماس هابس) في اخريات القرن السابع عشر وتكاملت بعد ذلك على يد (جان لاك) ثم اخذت صورتها الناضجة على يد جان جاك روسو منظر الثورة الفرنسية في كتابه (العقد الاجتماعي).

وتـدرجت نظرية (العقد الاجتماعي) بهذه الصورة على يد (هبس) و(لاك) و(روسو) حتى اصبحت اساسا يعتمد عليها النظام الديمقراطي الحديث في الغرب في توجيه سيادة الدولة.

ونحن نستعرض باجمال تطور نظرية (العقد الاجتماعي) في تاريخ الفلسفة السياسية في الغرب حسب تدرجها الزماني باختصار واجمال ـ ان شاء الله ـ .

١ـ العقد الاجتماعي عند (هـابس):

اول ما نعرف من هذه النظرية (العقد الاجتماعي) في كتابات توماس هابس الفيلسوف الانجليزي (١٥٨٨ ـ ١٦٧٩م) في القرن السابع عشر الميلادي.

وقد الف توماس هابس كتابه المعروف (لوياتان)[١] في توجيه شرعية سيادة الدولة.

ويمكن تلخيص فلسفة هابس خلال النقاط التالية:

١ـ من حق الانسان من الناحية الطبيعية والفطرية ان يفعل ما يريد وما يشتهي.

٢ـ العامل المحرك للانسان في افعاله هو تحقيق مصالحه ولذاته الشخصية، ودفع الضرر والاذى عن نفسه، لتحقيق هذه الغاية يمكن ان يصنع كلما يتطلبه الامر.

٣ـ وبهذه الصورة من الممكن ان يعتدي الانسان على حقوق الاخرين وهذا

(١) (لوياتان) هو حيوان اسطوري بحري عظيم القوة والجسد، ويقصد هابس بهذه التسمية تشبيه سلطة الدولة بقوة وضخامة هذا الحيوان الاسطوري الكبير في البحار.

الاعتداء يجره الى كوارث ومشاكل كثيرة.

٤ـ الانسان بطبيعته الاولية حيوان فاتك يعتمد اسلوب الفتك والعدوان على الاخرين في الوصول الى اهدافه.

٥ـ وبذلك فلا يمكن ان يأمن احد على نفسه، فهو كما يفتك بالاخرين الضعفاء، يفتك به من هو اقوى منه.

٦ـ وللفرار من هذه العاقبة الحتمية ابتكر الانسان فكرة (المجتمع)، وتنازل متطوعا عن الكثير من حقوقه وحرياته للهيئة الحاكمة ليسلم على حياته وامنه.

٧ـ وهذا التنازل تم بموجب (عقد اجتماعي) بين الناس انفسهم، ومقتضى هذا العقد هو ان يتنازل الانسان عن جملة من حقوقه وحرياته للدولة ليسلم على جانب اخر من حقوقه وحرياته.

٨ـ وبهذه الصورة من التراضي والتفاهم الاجتماعي فيما بين الناس انفسهم تم تخويل الدولة بالسلطة، وعند تخويل الدولة بالسلطة يجب على الناس طاعة الدولة، ولا يجوز ان يسترجعوا ما اعطوه للدولة من حق السيادة والطاعة ولا يمكن فسخ هذاالتخويل بحال من الاحوال، وقد تجور السلطة وتعتدي على حقوق الناس، ولكن ذلكلايسمح للناس بالتمرد على الدولة، ومهما كان ظلم الدولة وعدوانها فان الفساد الناجم عن فقدان الدولة اعظم بكثير من الفساد الناجم عن عدوان الدولة.

ويذكر (هابس) في تفصيل النظرية:

(ان الانسان بفطرته وطبيعته الاولية يسعى لتحقق الأمن الذي يتطلبه حياته الشخصية، ولو كان يتم للانسان تحقيق هذا الأمن بغير الاستعانة بالاخرين كان من حق الانسان ان يفعل ما يبلغه هذه الغاية، ولكن لما كان من غير الممكن تحقيق (الأمن) في حياته من دون الاستعانة بالاخرين... فان هذا الحق: (حق الوصول الى الأمن الشخصى بكل وسيلة وغاية ممكنة) يسقط من الناحية الاخلاقية والقانونية.

و(الأمن) اذن هو المطلب الذي يشترك فيه الجميع، واذا لم تتظافر جهود

الجميع على حماية الامن فلا يمكن ان يتحقق الأمن للناس.

وعليه، فلكي يتحقق الأمن للجميع لابد ان يتنازل كل واحد من الناس عن جانب من حريته وحقوقه بقدر ما يتنازل الاخرون، وبشرط تنازل الاخرين، وفي هذه الحالة فقط يتم تحقق الأمن للجميع)[١].

ويعتقد هابس ان العقل يهيئ الارضية الكافية لهذا التنازل، ويعد الانسان لقبول هذا التنازل... ولكن العقل ضعيف ولا يستطيع ان يقاوم الحرص والطمع والجشع وغريزة الفتك في الانسان، فلا بد من التفاهم على قيام الدولة واناطة السلطة بها وتمكين الدولة من كبح جموح الناس [٢].

وبهذه الطريقة ينتهي (هابس) الى احساس الناس بضرورة اقامة الدولة لحماية امن الناس.

ومهمة الدولة هي حماية امن المجتمع والمنع من حدوث الفوضى.

وهذه النظرية تجر هابس الى نتيجة حتمية يصرح بها ويتقبلها ويتبناها.

فان (العقد الاجتماعي) بهذه الصورة لم يتم بين طرفين (الشعب والسلطة) وانما تم التراضي بين الناس انفسهم، والسلطة ليست طرفا في هذا العقد.

وقد اناط الناس بها صلاحية السيادة وشرعية الحكم، فلا يجوز لهم ان يتراجعوا عن قرارهم، ولا ان يستعيدوا ما اعطوه للدولة من السيادة وشرعية الالزام مهما كان النظام متعسفاً، ومهما تورط في الظلم والاستبداد، لان العقد لم يتم بين الناس والسلطة، وانما تم بين الناس انفسهم، وتنازلوا بموجب هذا العقد عن حقوقهم وحرياتهم للدولة فلا تراجع، ولا حق لأحد فى التمرد على النظام، مهما كانت العاقبة.

الا ان تضعف الدولة عن المحافظة على الأمن فانها تسقط تلقائيا وبصورة تكوينية، لان قوام الدولة (بناءًا على نظرية «الأمن») هو تحقيق الأمن في المجتمع،

(١) تاريخ الفلسفة السياسية للدكتور بهاء الدين بازاركاد: ٢/٥٩٢.

(٢) نفس المصدر: ٢/٥٩٤.

فاذا عجزت السلطة المحافظة على الأمن فلن تكون هي الدولة التي اقامها الناس لهذه المهمة.

٢ـ العقد الاجتماعي عند(جان لاك):

وجاء (جان لاك)، الطبيب والفيلسوف الانجليزي ، (١٦٣٢ ـ ١٧٠٧ م) بعد توماس هابس بافكار ونظريات جديدة في حقل (فلسفة السياسية)، وكان يعد منظراً للثورة الامريكية، وقد ادخل (جان لاك) تغييرات كبيرة في نظرية (العقد الاجتماعي)، وتكاملت النظرية في يده، وحول العقد الى عقد واتفاق بين الطرفين (الشعب والدولة) ورأى ان هذا العقد يلزم كلا من الطرفين بتعهدات متقابلة.

فهو كما يلزم الشعب بالطاعة والانقياد يلزم الدولة كذلك بالتزامات وتعهدات تجاه الشعب.

ويعتقد (لاك) ان اساس الحاجة الى (الدولة) ليس هو توفير الامن فقط، كما يدعي هابس، وانما يحتاج الناس الى الدولة لغاية اخرى، لاتقل اهمية عن الغاية الاولى، وهي توفير معيشة الناس وتسهيل امورهم، فالناس بحاجة الى الصحة، والاعمار، والتموين والتجارة، والصناعة، والزراعة، والخدمات الاخرى، ولا يستطيع كل انسان بمفرده توفير مستلزمات الحياة هذه، ولا بد لهم من دولة تقوم بهذه المهام، وتتعهد بتوفير هذه الخدمات بصورة عادلة.

فاذا اخلت الدولة بتعهداتها تجاه الشعب، فان شرعيتها تسقط ويسقط حقها في الزام المواطن.

فسلطة الحاكم-اذن-سلطة مشروطة وليست سلطة مطلقة وغير محدوده، كما جاءت في نظرية هابس، وغير قابلة للفسخ والاسترجاع.

والسبب في ذلك ان هابس يبني النظرية على اساس توفير الأمن... فتبقى سيادة الدولة سيادة شرعية ما دامت قادرة على حماية امن المجتمع، وان كان النظام

ظالما يمارس الظلم والاستبداد السياسي والتمييز والتفرقة، فاذا فقد النظام القدرة على السيطرة على البلد، ولم يعد بقادر على توفير الأمن سقط تلقائيا (وبصورة تكوينية).

اما (لاك) فقد ذهب الى ان مهمة الدولة اوسع مما جاء في نظرية (هابس) ولذلك فان اخلال الدولة بتعهداتها للشعب، يسقطها عن الشرعية، ويسمح للناس بالخروج والتمرد في النظام.

ويعتقد(لاك)ان الحياة السياسية والاجتماعية تفقد الانسان حريته المطلقة غير المقيدة بحدود القانون والنظام، وتلزمه بالتنازل عن جانب واسع من حريته وحقوقه، واذا اراد الانسان ان يمارس حريته وحقوقه من دون حدود وقيود كما كان يمارسها من قبل في الحياة غير السياسية وغير الاجتماعية، وفي مرحلة ما قبل قيام الدولة .... فاي فرق يبقى بين الحياة في المرحلة ما قبل قيام الدولة وما بعده.

كما يذهب لاك الى ضرورة التسليم لراي الاكثرية في النظام الديمقراطي لاستحالة اتفاق الناس ـ عادة ـ على رأي واحد وموقف واحد، وفي مثل هذه الحالة من الاختلاف والانقسام في الرأي لابد من تحكيم رأي الاكثرية والتزام الاقلية بها لتتمكن الدولة من اداء واجباتها، ويسلم المجتمع من الانقسامات والاختلافات تشتت الرأي والموقف.

٣ـ العقد الاجتماعي عند (روسو):

وجاء بعد (جان لاك) الفيلسوف الفرنسي المعروف جان جاك روسو (١٧١٢ ـ ١٧٧٨م) واكمل نظرية (العقد الاجتماعي) واعطاها صيغتها الاخيرة تقريبا، وكما كان جان لاك يعتبر منظر الثورة الامريكية، فان روسو يعتبر منظر الثورة الفرنسية، وروسو يعتمد في كتابه المعروف (العقد الاجتماعي) على افكار (لاك) كثيرا الا انه ادخل على هذه النظرية تغييرات وتعديلات كثيرة طورت النظرية، وجعلت منها اساسا للديمقراطية الحديثة... على ان هناك تغييرات اخرى ادخلت على هذه

النظرية بعد ذلك.

يعتقد روسو بوجود حقوق طبيعية واخلاقية ثابتة للانسان ويرى ان شرعية الدولة تتوقف على مدى رغبتها في تحقيق هذه الحقوق، وقدرتها على ذلك ايضا.

ويضع نظرية (العقد الاجتماعي) على الاسس التالية: ١ـ ليس لأي انسان سيادة على انسان اخر، تقوم على اساس القدرة والسيطرة، فان القوة والسيطرة لاتكون سببا لوجود الحق، وحق سيادة الانسان على انسان اخر يأتي فقط من ناحية الاتفاقيات والعقود التي تكشف عن رضا الاطراف والتزامهم بهذه السيادة وما يستتبعها من شؤون.

٢ـ ويبقى هذا العقد نافذا مالم يخلّ اخد الاطراف بشروط القرار وتعهداته التي التزامها في العقد.

٣ـ (العقد الاجتماعي) ليس قضية تاريخية ولا حدثا تاريخيا، حدث في فترة من فترات التاريخ.. وانما هو اصل اخلاقي يلتزم به ويمضيه الناس الذين يعيشون ضمن المجموعة البشرية الخاضعة لنظام سياسي قائم بتعهدات متقابلة بين الشعب والدولة، والحياة الاجتماعية والسياسية تنطوي بصورة ضمنية على قبول هذا العقد والالتزام بمحتواه، وان كان يتخلف عنه الكثير من الناس، ولكن مع ذلك كله فان ضرورات الحياة الاجتماعية تملي على الانسان المشاركة في هذا العقد الاجتماعي)[1].

ويعتقد روسوأن الدولة تتحول بسبب رضا الجميع وارادتهم الى قوة كبيرة تختزن قوة الجمع وارادة الجمع، واما في مرحلة العمل فان ارادة كل مواطن تصنع جزء من ارادة الدولة، والدولة تدار بصورة مستمرة عن طريق الرجوع المستمر الى الرأي العام، وقوانينها تلزم المواطنين لانهم في الحقيقة هم الذين يصنعون قرار الدولة[2].

هذا باجمال هو نظرية العقد الاجتماعي في مراحلها الاخيرة المتكاملة التي تمت

(١) تاريخ الفلسفه السياسية للدكتور بهاء الدين بازاركاد: ٧٦٢/٢.

(٢) مقدمة على السياسية هارولد. ج. لاسكي الفصل الاول: البند الثالث.

على يد روسو في كتابه (العقد الاجتماعي).

نقد نظرية العقد الاجتماعي:

وقد انتقد هارولدج لاسكي نظرية العقد الاجتماعي في كتابه (مقدمة على السياسة) فقال: ان هذه النظرية تواجه عقبات من الصعب اجتيازها.

١ـ منها اننا لانعرف (عقدا اجتماعيا) اصيلا وواضحا بالمعنى الذي يذكره اصحاب هذه النظرية...

٢ـ ان الدولة لم تصنع صنعا، وانما نمت كأية ظاهرة اجتماعية بالتدريج.

٣ـ لايمكن ادارة شؤون الدولة برضى المواطن دائما، وليست المشكلة فقط تكمن في وجود اقلية غير راضية فيسعى في ارضائها او توجيه شرعية الدولة مع وجود هذه الاقلية غير الراضية... وانما المشكلة الحقيقية تكمن في عمل الدولة وفعلها عندما تتسع وتتجاوز حدود المدينة والمدنيين، فانه لايمكن في هذه الحالة ادارة شؤون الدولة الا بظهور وبروز (ارادة السلطة) والهيئة الحاكمة.

ويتحدث اصحاب النظرية في الغالب عن وجود عقد ضمني ورضا للمواطنين بصورة ضمنية في التعامل مع الدولة، ولكن من الصعب جدا ان يعتمد هذا الرضا الضمني في توجيه شرعية الدولة بالعقد الاجتماعي... فان العقد والرضا مسألة نابعة من الوعي وبمعنى القبول الواعي والارادي للدولة.

وكيف يمكن توجيه شرعية الدولة على العقد الاجتماعي بمعنى القبول الواعي والارادي للمواطنين للدولة وعملها... من دون شك نحن نحتاج الى اساس اكثر متانة من هذا الاساس في توجيه شرعية الدولة)[1].

وكيفما كانت ملاحظات ونقود لاسكي على نظرية (العقد الاجتماعي) فهو لايقدم بديلا عوض هذه النظرية يثبت امام النقد، وقد رأينا ان لاسكي يعتمد نظرية

(١) مقدمة على السياسه: هارولد. ج. لاسكي الفصل الاول، البند الثالث.

(المصلحة)، وهذه النظرية اضعف من نظرية العقد امام النقد... وسبق ان نقدنا نظرية المصلحة فلا نعود.

النقدان الاساسيان:

ومهما يكن من امر فان لدينا نقدين على هذه النظرية .. ولم نجد اجابة على هاتين النقطتين عند اصحاب هذه النظرية.

واول هذين النقدين ينصب على المسألة المحورية في الديمقراطية، وهي (سيادة الشعب)، فان الديمقراطية تعتمد بشكل قاطع مبدأ (سيادة الشعب) في مقابل مبدأ الاستبداد السياسي والدكتاتورية، وتطرح نظرية العقد الاجتماعي في طريقة تحويل السيادة من الشعب الى الدولة.

والسؤال الذي نطرحه هنا عن هذا المبدأ بالذات (سيادة الشعب) عن المصدر الذي اكسب الشعب السيادة والولاية على نفسه؟

فقد يصح هذا المبدء في حالة عدم الاعتراف بالله تعالى مالكا، وربا للكون وللانسان، فيكون الانسان ولي نفسه، ويعود امره الى نفسه، ويحق له ان يتصرف في نفسه ووضعه وحياته بالطريقة التي تعجبه، ويحق له ان يمنح هذه السيادة لمن يشاء من الهيئة الحاكمة وغيرها، ويحق له ان يستعمل هذه السيادة في عملية (العقد الاجتماعي).

ولكن كيف يمكن توجيه وتفسير هذه السيادة بالنسبة الى المؤمنين بالله تعالى، فان الله تعالى عند المؤمنين هو المالك الحقيقي لهذا الكون بما فيه الانسان، والرب، والمدبر للكون، وبطبيعة الحال يكون هو الحاكم الحقيقي الذي يتولى امر الانسان والكون... فليس من الممكن فصل الحاكمية عن الربوبية والملك. ولا بد ان يستتبع الربوبية والملك الولاية والحاكمية بصورة حتمية، كما اشرنا الى ذلك عند شرح نظرية الميثاق في القران.

وبناء على هذا التصور كيف يكون للانسان سلطان على نفسه... ولذلك فنحن لاننفي فقط سلطان الاخرين على الانسان كما ورد في نظرية العقد الاجتماعي، وانما ننفي سلطان الانسان على نفسه[1] ايضا، لانه يدخل في ملك الله تعالى، ولا يملك الانسان من امر نفسه شيئا.

(والديمقراطية) وان ظهرت في الغرب المسيحي المؤمن بوجود الله تعالى بصورة مبدئية، الا انها في جوهرها نظرية مادية قائمة على اساس الالحاد بالله تعالى، ونفي وجود الله وعدم الاعتراف بملكه للانسان وللكون ولسلطانه على الانسان والكون.

ولذلك فهي نظرية مادية قائمة على اساس الحادي، ولايمكن توجيه وتفسير هذه النظرية من وجهة نظر المؤمنين بالله تعالى، مهما كان الدين الذي ينتمون اليه.

ولكيلا يخطر على بال القارئ ان هذا النقد يشمل نظرية (الميثاق) التي نؤمن بها ايضا، كما يشمل نظرية العقد الاجتماعي، وان كلتا النظريتين تقومان على اساس ولاية الانسان على نفسه فتنيط احداهما الامر بالله تعالى ورسله واوليائه، وتنيط

(١) من المسائل التي اختلف فيها اراء الاسلاميين في علم الاصول (مسألة الحظر والاباحة) والخلاف في هذه المسألة في ان الاصل الأولى في التصرف في الاشياء بغض النظر عن الدليل الشرعي من حيث انه تصرف في ملك الله وسلطانه هل هو الاباحة او الحظر.

وهذه المسألة تختلف عن مسألة (البراءة والاحتياط) ففي المسألة الثانية (البراءة) يتم البحث عن المكلف في حالة الشك في التكليف من حيث غموض الدليل وابهامه، او فقدان النص، او سائر العوامل الموجبة للشك في التكليف الالزامي او التجريمي، بينما يتم البحث في المسألة الاولى، (الحظر والاباحة) مع غض النظر عن التكليف والدليل الشرعي وحتى مع العلم بعدم ورود دليل شرعي في جواز او عدم جواز التصرف بشيء مما لم يرد اذن من الله بخصوصه لانه من التصرف في ملك الله تعالى ولا يصح من دون اذن الله تعالى.

واكثر الاسلاميين يذهبون الى الاباحة في هذه المسألة... بينما يتوقف القائلون بالحظر عن التصرف حتى يرد اذن خاص، من الله تعالى، الا ان هذه الاباحة الاولية (التي تشمل نفس الانسان ايضا لانه يدخل في ملك الله تعالى ايضا كما تدخل سائر الاشياء) لاتنطابق مع مبدأ سيادة الانسان على نفسه التي تعتمده الديمقراطية ونظرية العقد. فان مبدأ الاباحة الذي يقول به الاسلاميون لاينفي ملك الله تعالى وسلطانه على الانسان والاشياء، وانما يستكشف الاسلاميون من الدليل العقلي والشرعي اذناً عاما من الله تعالى لعباده في التصرف في الاشياء وفي انفسهم مالم يرد نهي من الله تعالى.

وهذا امر يختلف اختلافا بينا عن مبدء سيادة الانسان، وسيادة الشعب على نفسه.

الاخرى الامر بالدولة المنتخبة.

لكيلا يخطر على فكر احد هذه الشبهة نقول ان نظرية (الميثاق) لاتقوم على اساس ولاية الانسان على نفسه، ولا يعطي الانسان لله تعالى في الميثاق شيئا يملكه هو من الـولاية على نفسه، وانما يقر لله تعالى بالربوبية... وهذا الاقرار الحاصل بالفطرة والعقل يلزمه بالطاعة والانقياد، وتسليم الامر كله لله تعالى.

فهناك اقرار على الصعيد النظري يتم بالفطرة والعقل لا يسع الانسان التنكر له.

وهذا الاقرار النظري يستتبع موقفا عمليا بالطاعة والتسليم لله تعالى ولمن يامر الله تعالى بطاعته... ولا سبيل للانسان في التخلص من هذا او ذاك.

وهذا شيء اخر يختلف اختلافا كاملا عن ولاية الانسان على نفسه، والذي تطرحه النظرية الديمقراطية.

* * *

والنقد الثاني على نظرية (العقد الاجتماعي) في رضا وموافقة المواطنين بقيام الدولة واعمالها، والذي يرتكز عليها نظرية العقد في شرعية الدولة.

فهـل يمكن ان تكـون هذه الموافقة والرضا شاملة لكل المواطنين في قيام الدولة؟ وهل هناك دولة ونظام يستطيع ان يكتسب رضا جميع المواطنين.

قد نقول في الاجابة على السؤال ان مشاركة المواطن في الانتخابات تعني موافقته على رأي الاكثرية وقبوله لنتائج الانتخابات التي يراها اكثرية المواطنين... ولكن ما الـذي يلزم المواطنين الى اعطاء رضا غير مشروط وغير قابل للاسترداد للدولة، فما دامت شرعية الـدولة قائمة على رضا المواطنين ومقدار رضاهم، فان من حق المواطن ان يعطي رضا مشروطا بقيام الدولة بالصورة التي يريدها ومشروطا بالتزام الدولة بالاهداف والاغراض التي يطلبها المواطن، وليس من حق احد ان يسلب هذا

الحق من المواطن، وفي حالة عدم قيام الدولة بالصورة التي يريدها المواطن، وبالاهداف التي يطلبها المواطن، حتى لو كان ذلك بسبب وجود اكثرية معارضة، فان من حق المواطن ان يسحب رضاه.

فما الذي تعتمده الديمقراطية لمواجهة هذه الحالة الا ان تلجأ الى القوة وتسقط رضا الاقلية المعارضة من الحساب وتقتصر على رضا الاكثرية.

قد تكون الضرورة تقتضي مثل هذا التصرف في اعتماد رضا الاكثرية، وارغام الاقلية غير الراضية على الطاعة، واسقاط رضاها من الحساب.

ولكن هذه الضرورة التي نعترف بها تودي الي نسف كامل لنظرية العقد الاجتماعي، التي تقوم عليها الديمقراطية الحديثة ولا تبقى النظرية بعد ذلك صالحة لتوجيه شرعية الدولة، وينتهي الامر الى ما انتهى اليه .ج. هارولد لاسكي.

من قبل من الاعتراف بعدم صلاحية العقد الاجتماعي لتوجيه شرعية الدولة، وضرورة البحث عن اساس اخر غير هذا الاساس.

ثم ما الذي يضمن مشاركة كل المواطنين في هذا العقد، والدخول في الانتخابات ؟ واذا امتنع ثلة من المواطنين عن الدخول في القد والمشاركة في الانتخابات، فما الذي يلزم هولاء، بالموافقة على العقد والدخول في الانتخابات ؟ وهل من سبيل لالزامهم بالدخول في الانتخابات ؟ وفي حالة عدم المشاركة والامتناع عن الدخول في النتخابات هل هناك من سبيل في الزامهم بطاعة الدولة التي لم يشاركوا في تكوينها ولم يعلنوا رضاهم عنها.؟

وهذا بالتأكيد امر محقق في كل مجتمع فليس كل الناس يعطون رضاهم بشكل غير مشروط للدولة، وليس كل الناس يرضون بالدخول في العقد الاجتماعي والانتخابات التي يعلمون نتائجها سلفا، في الانحياز للاكثرية.. وليست هذه الافتراضات ضربا من الخيال الذي لاواقع له.

ومع ذلك فهناك حقيقة لا يمكن انكارها في ظل اي نظام، وهو التحاق

القاصرين الذين كانوا في وقت الانتخابات قصرا، لايحق لهم، ولايستطيعون المشاركة في هذا العقد الاجتماعي، ثم يبلغون سن الرشد القانوني. بعد قيام الدولة فيواجهون امرا واقعا، ونظاما قائما، لم يؤ خذ رأيهم فيه اطلاقا، ويضطرون لمسايرة هذا الامر الواقع من دون ان يكون قد سبق لهم رضا او رأي في هذه الدولة؟

وهذه حقيقة لايمكن انكارها، وليست افتراضا والفئة التي تشكل هذه المجموعة تغطي مساحة واسعة من كل مجتمع فما الذي تصنعه الديمقراطية بهؤلاء الا ان تلزمهم بطاعة الدولة بغض النظر عن رضاهم وعدم رضاهم، والا ان تسقط رضاهم موافقتهم من الحساب، وتجعلهم امام الامر الواقع وتلزمهم (بالامر الواقع).

ومرة اخرى نقول اننا لانناقش في ان هذه الحالة ضرورة، وان الديمقراطية تلجأ الى هذا الحل عن اضطرار.

ولكننا نقول ماذا يبقى من نظرية العقد الاجتماعي بعد هذه الضرورات ؟ كيف يمكن اعتماد نظرية العقد الاجتماعي، والرضا في بشرعية الدولة بعد هذه الضرورات الواسعة والكثيرة التي تلجأ فيها الديمقراطية الى اسقاط رضا وموافقة مساحة كبيرة من المجتمع من الحساب.؟

فاذا كان لابد من توجيه شرعية الدولة على اساس ـ غير الاساس الديني ـ فان افضل الحلول هو الحل الذي قدمه لاسكي بعد تقديم الادلة على عجز (العقد الاجتماعي) من توجيه شرعية الدولة.

ورغم ما قدمنا من نقد لنظرية (لاسكي) فان تلك النظرية اكثر معقولية من نظرية العقد الاجتماعي.

ولعل (روسو) انتبه الى هذه العقبة التي تواجه نظرية العقد في كتابه (العقد الاجتماعي) وحاول ان يجتاز هذه العقبة ولكنه لم يصنع شيئا

يقول روسو:

(اذا كان قد وجد حين العقد الاجتماعي معارضون فان معارضتهم لاتبطل

العقد، انها تحول فحسب دون ان يدخلوا فيه، فهم اغراب (غرباء) بين المواطنين وعنـدما تكون الدولة قد اسست فان الاقامة فيها علامة الرضا، اذ تصبح سكن الاقليم خضوعا للسيادة)[1].

ولكن ما الذي يلزم المواطـن بالخيار بين مغادرة الاقليم والطاعة للدولة.

واذا امنا بعدم سيادة انسان على اخر، وهو صحيح، من منظورنا ايضا ـ فكيف يجوز للدولة ارغام المواطن على الهجرة او الطاعة؟

وهل تزيد الانظمة الدكتاتورية على ذلك شيئا الافي سعة وضيق دائرة هذا الارغـام؟فان هذهالانظمة ايضا لاتزيد على ارغام المواطن بالخروج عن الوطن، او البقـاء، وطاعـة النظام، ـ رضيام لم يرض ـ واتساع رقعة هذا الارغام في الانظمة الدكتاتورية وضيق هذه الدائرة في النظام الديمقراطي لايغير من الحقيقة شيئا.

وحتى اللجوء الى قانون تحكيم الاكثرية في مثل هذا الحال لاينفع في حل هذه المشكلة فان هؤلاء المتخلفين عن العقد لم يدخلوا العقد من الاول لنلزمهم بما التزموا به من قبول رأي الاكثرية.

وعقبة اخرى تواجهها الديمقراطية، في امتداد هذه المشكلة وهي ان الدولة ومهامها واعمالها لاتتلعق فقط بهذا الجيل المشارك في الانتخاب، وانما تجرها مهامها الى التصرف في شؤون الاجيال الاخرى ايضا من الذين يدركون سن الرشد والدولة قائمة او من الاجيال التي تأتي فيما بعد.

فان الدولة تتصرف في الثروات الطبيعية المدخرة في الاقليم بكيفية واخرى، وهذه الثروات ليست من حق هذا الجيل فقط، ولايجوز للدولة ان تفرط بمصالح الاجيال القادمة لمصلحة الجيل المعاصر المشارك في العقد.

وقد تأخذ الدولة قرارا بالحرب،، وتكلف الاجيال المقبلة تكاليف هذه الحرب، وقد تقترض الدولة لشوونها الاستهلاكية قروضا، وتكلف الاجيال المقبلة تسديد هذه

(١) العقد الاجتماعي ترجمة ذوقان مرقوط صفحه: ٧٣.

القروض... وما الى ذلك وهي كثيرة.

فلابـد من ضوابط على رأي ممثـلي الشعب لتحـديد هذه الاراء، وضبـطها وتقييدها، بما لايضر مصلحة البلد والاجيال الاخرى.

وقد انتبهت الدول الحديثة الى هذا الامر، فطرحت مجموعة من الضوابط التي تحفظ للاجيال القادمة مصالحها.

منها تحديد سن الناخبين، ومنها اعطاء حق الاعتراض وتعليق قرارات الهيئة التشريعية للهيئة التنفيذية، ومنها وضع مجلس اخر الى جانب مجلس ممثلي الشعب باسم مجلس الشيوخ لا ينتخبه الشعب مباشرة لضبط قرارات الهيئة التشريعية، وغير ذلك من القوانين التي تحدد صلاحيةوسلطان الجيل المعاصر وممثليه من النواب.

وهذه المسائل جميعا تشكل علامات استفهام كبيرة امام نظرية **العقد الاجتماعي**.

فاذا قامت الدولة على رأي ورضا الجيل الحاضر كما يطرحه روسو، وهو غير منتبه الى هذه المضاعفات والتبعات التي تتراءى للدول الحديثة عند التطبيق فانها سوف تحرم الاجيال الاخـرى من كثـير من حقوقها وتكلفهم بما لم يوافقوا عليه وتتصرف في شؤونهم وحقوقهم من دون رضاهم.

واذا قامت الدولة بناء على التطورات الحديثة التي ادخلت على الديمقراطية الحديثة،بحكم الضرورة فان المواطن يدخل عملية العقد الاجتماعي، بموجب قوانين، وضوابط وحدود لم يؤ خذ رأيه فيها... وهذه القوانين والضوابط تستتبع وجود سيادة للدولة والقانون تحدده وتقيده قبل ان يدخل في (العقد الاجتماعي)، ومن دون ان يؤخذ نظره ورأيه في ذلك.

فمن اين جاءت الشرعية لهذه السيادة والقانون الذي يفرض على المواطن قيودا وحدوداًلم يؤخذ رأيه فيها ؟، واذا كانت شرعية الدولة من رضا الشعب فكيف نفسر شرعية هذه الضوابط والحدود التي تفرضها الدولة على الناخبين قبل ان يؤخذ

رأي الشعب، وقبل ان يدخل الشعب في عملية الانتخابات ؟

... الا ان نفسر لك ذلك بـ (المصلحة الاجتماعية) (وضرورات الحياة الاجتماعية).... وهو معقول، ولكنه ينسف العقد الاجتماعي من الاساس، ويبقى السؤال عن شرعية سيادة الدولة-كما ذكرنا-بلاجواب في النظرية الديمقراطية.

القيمة التكريمية للميثاق

لماذا الميثاق؟

ان الله تعالى يريد الطاعة من عباده.

وهو قادر على ان يكره عباده، وبيده الامر والحكم، وهوالقاهر فوق عباده.

فلماذا يطلب من عباده الطاعة عن وعي وارادة، ويأخذ منهم الميثاق على ذلك.

ان الاجابة على هذا السؤال يدخل في صميم البحث عن الميثاق، ومن غيره لايكتمل هذا البحث:

ولذلك فلا بد ان نقف عند هذا السؤال قليلا:

التكليف:

ان الاسلام هو التسليم والانقياد لله تعالى... وهذا الكون كله منقاد خاضع لامر الله، لايخرج شيء عن قبضته وحكمه... والانسان يدخل ضمن هذا الكون.

والتسليم والانقياد يتم بطريقتين:

١ـ الطوع ٢ـ والكره.

يقول تعالى:

﴿واذ اخذ الله ميثاق النبيين لما اتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم

رسول مصدق لما معكم، لتومنن به ولتنصرنه، قال أأقررتم واخذتم على ذلك اصري قالوا: اقررنا فاشهدوا وانا معكم من الشاهدين، فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾.[1]

﴿افغير دين الله يبغون وله اسلم من في السموات والارض طوعا وكرها واليه يرجعون﴾.[2]

وهذه المجموعة من الايات الكريمة من سورة (ال عمران) تشير الى الميثاق الذي اخذه الله تعالى من النبيين، ثم تحذر الناس من ان يتولوا ويتخلفوا عن العمل بالميثاق وتدعوهم الى الطاعة والتسليم.

ثم تذكرهم بهذه الحقيقة التي تهز الانسان من اعماقه **﴿افغير دين الله يبغون وله اسلم من في السموات والارض طوعا وكرها واليه يرجعون﴾**.

ولنتوقف قليلا عند كلمتي (الطوع) و (الكره).

ويقول تعالى:

﴿ثم استوى الى السماء وهي دخان، فقال لها وللارض ائتيا طوعا او كرها قالتا اتينا طائعين﴾.[3]

والدعوة هنا الى التسليم للسموات والارض.

ويقول تعالى:

﴿ولله يسجد من في السموات والارض طوعا وكرها﴾[4] والكلام هنا عن ذوي العقول.

وفي هذه الايات الكريمة دعوة الى التسليم، واشارة الى ان هذا الكون كله مدعوا الى التسليم والانقياد ـ ان طوعا او كرها ـ.

والطوع هو التسليم من دون مشاكسة ومعاكسة في مقابل الكره الذي هو من

(١) آل عمران: ٨١. (٢) آل عمران: ٨٢ .

(٣) فصلّت: ١١.

التسليم ايضا ولكن مع المشاكسة والارغام.

وكلا المعنيين يردان في ذوي العقول وغير ذوي العقول.

فان ذوي العقول ينقادون عن طوع ووعي وارادة، وهذه هي (الطاعة) كما ينقاد غير ذوي العقول لارادة الله تعالى من الجماد والحيوان والنبات من دون مشاكسة وحدود، وذلك معنى قوله تعالى حكاية عن السموات والارض ﴿ **اتينا طائعين**﴾.

فالسماوات والارض تنقاد طائعة لامر الله تعالى بخلاف الانسان فانه قد يشاكس ويعاند ولاينقاد.

والكره يأتي في مواجهة المشاكسة واللجاج، فيكون بمعنى الارغام على الانقياد والتسليم، ويستعمل في ذوي العقول وغير ذوي العقول.

نقد يرد في ذوي العقول كاكراه الانسان على الابتلاءات، فان الابتلاءات هي من حكم الله تعالى ومشيئته وارادته، كالمرض والفقر، والمصائب المختلفة والانسان يستسلم لهذه الابتلاءات عن كره وارغام.

وقد يرد في غير ذوي العقول كما يكره الانسان تيار الماء على التجمع امام السدود والنظوام التي تنظم مسير الماء.

وهذه اربعة اقسام من التسليم اختار الله تعالى منها للانسان القسم الاول وهو التسليم عن طوع ورغبة ووعي تكريما للانسان.

ولا شك ان هناك فرقا كبير بين استدعاء انسان ليحضر بارادته، او اكراهه على الخروج والحضور بالقوة والارغام، والاول هو التكليف بالطاعة، والثاني هو الارغام والاكراه.

قد اكرم الله تعالى الانسان من دون سائر الكائنات في الارض بالطاعة والتكليف، ومنحه القابلية على قبول التكليف.. بينما لا يملك غير الانسان من سائر الموجودات من الحيوان والنبات والجماد قابلية قبول التكليف.

وليس في الامكان تنظيم حياة الحيوانات مثلا بالتكليف، كما يمكن في

الانسان، واذا اقتضت المصلحة لحماية الحيوان او للاستفادة منه تنظيما لحركة الحيوان فان هذا التنظيم لا يمكن من غير الاكراه واستعمال القوة.

وحياة الحيوان لاتنتظم الا ضمن عاملين: عامل الغريزة، ويتولى هذا العامل تنظيم شطر كبير من حياة الحيوان، وعامل القوة والاكراه.

بينما نجد ان الانسان يقبل التكليف في اي نظام، في النظام الديني وغير الديني ويمكن تنظيم حياته معيشته، على اساس التكليف، ويمكن ادارة حياة الانسان المعقدة بالتكليف... وظاهرة (التكليف) واضحة في العلاقات الاجتماعية والسياسية، والعائلية، والتجارية، والرسمية، وغير الرسمية.

وقابلية قبول (التكليف) منحة الهية للانسان وتكريم من الله تعالى له.

وقد ربط تعالى طاعة الانسان لاوامره ونواهية واحكامه وتشريعاته بـ (التكليف) والتسليم عن طوع، وارادة، ووعي تكريما له من بين سائر الكائنات فلم يكرهه على التسليم ولم يسخره لامره تسخيرا، ولم يرغمه على التسليم لاوامره ارغاما.

و(التكليف) لايتم الاعن اقرار بربوبية الله تعالى وولايته، وبعبودية الانسان لله تعالى، وهذا الاقرار يستتبع الاقرار بحق الطاعة لله تعالى على عباده.... وهو (الميثاق).

فالميثاق ـ اذن ـ من تكريم الله تعالى للانسان.

الميثاق هو خلافة الانسان لله تعالى:

والطاعة عن (ميثاق) هو معنى الخلافة في اغلب الظن-والله اعلم-. يقول تعالى **﴿واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة، قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال: اني اعلم ما لاتعلمون﴾**.[1]

(١) البقرة: ٣٠.

والخلافة هي ان يمثل الخليفة دور الاصل؟ عن ارادةووعي، وينفذ ما يريده الاصل بارادة ووعي، ومعنى خلافة الانسان لله تعالى، بناء على هذا الرأي:

ان الانسان يصبح اداة طائعة لتنفيذ ارادة الله تعالى ومشيئته في الارض، في اعمار الارض، وتعبيد الناس لله تعالى ولكن مع الارادة والوعي لابدونها.

اما الاداة التي تحل محل الاصل، وتعمل عمله من دون وعي وارادة، فلا تسمى بخليفة.

وقد اختار الله تعالى الانسان من بين سائر الكائنات ليكون خليفته في تنفيذ مشيئته وارادته.

الميثاق الامانة الالهية:

وكذلك نعتقد ان التكليف عن (الميثاق) هو (الامانة) التي حملها الله تعالى الانسان في قوله تعالى: **﴿انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فابين ان يحملنها، واشفقن منها، وحملها الانسان، انه كان ظلوما جهولا﴾**[1].

ونتوقف قليلا عند مفردات هذه الاية الكريمة لنستطيع ان نأخذ معناها الاجمالي بقدر ما يرتبط ببحثنا هذا، واليك هذه المفردات:

الامانة: الامانة مشتقة من مادة (الأمن) اي ما يبعث على اطمئنان النفس، ويقال لها الامانة لان ايداعها في موضع امن، او عند شخص امين يبعث على الاطمئنان في نفس المؤتمن، ولذلك فان طبيعة الامانة بهذا المعنى تلازم معاني التحصين والحفظ والحماية.

فالامانة التي حملها الله تعالى الانسان لابد لها من تحصين وحماية وحفظ، ولابد ان تكون، معرضة للخطر، ولكي يكون الانسان مؤتمنا عليها لابد.ان يعطي اهتمامه كثيرا لحمايتها وحفظها وحراستها.

(١) الاحزاب: ٧٢.

كما ان الامانة تلازم معنى الحمل والاداء، فكل امانة تستدعي حملا واداء، وبضم هاتين النقطتين الى بعض نستطيع ان نكتشف معنى الامانة، فهي: اولا ـ مسوولية يحملها الانسان ليؤديها، وثانيا تتصف هذه المسؤولية بالثقل، وتكلف حاملها جهداً في المحافظة عليها وعدم التفريط فيها...

ولايمكن تفسير هذه الامانة بموجب النقطتين السابقتين بغير التكليف، واكثر التفاسير الواردة في معنى الامانة من التفسير بالمصداق، ولا ينافي ما ذكرنا لها من تفسير.

الاباء: في هذه الاية الكريمة لابد ان يكون بمعنى الاستعداد والقابلية لحمل الامانة، وعدم الاستعداد والقابلية لذلك.

والاشفاق: لابد ان يكون بمعنى ضعف بنية السموات والارض والجبال عن حمل الامانة.

ولا يمكن ان تفسر (الحمل) بمعنى فعلية الحمل وتحمل المسؤولية... فان الله تعالى يقول ﴿وحملها الانسان﴾ بمعنى نوع الانسان، ولايصح اسناد حمل الامانة الى نوع الانسان الا اذا فسرنا (الحمل) بقابلية واستعداد الحمل، اما فعلية الحمل فلا، لان هناك كثير من الناس لم يحملوا الامانة، وتخلفوا عن حمل الامانة او تلبسوا بالخيانة بالامانة.

ومقابلة (الحمل) و(الاباء) في هذه الاية الكريمة (.. فابين ان يحملنها... وحملها الانسان) بمعنى المقارنة والمقايسة بين الانسان وسائر المخلوقات من الجبال والسموات والارض حيث يملك الانسان هذه القابلية، وتفقدها سائر الكائنات من السماوات والارض والجبال.

ويضم هذه المفردات الى بعض ننتهي الى ان الامانة هذه هي مسوولية (التكليف الشرعي) الذي حمله الله تعالى الانسان، واما السماوات والارض والجبال فقد ضعفن عن حمل هذه المسؤولية... ومن بين هذه الكائنات التي يعدها القران

الكـريم كان الانســان هو الكائن الوحيد الذي اعده الله تعالى لتحمل مسؤولية (التكليف)، والذي اهله الله تعالى لعقد ميثاق الطاعة معه، والنهوض باعباء التكليف.

الميثقاق سلم الكمال:

وكلمة اخيرة نقولها عن القيمة التكريمية للميثاق قبل ان ننهي هذا الحديث: ان (التكليف) و(الطاعة) عن وعي وارادة هما فقط وحدهما اللذان ينميان الانسان ويمنحانه الكمال... وتتكامل شخصية الانسان، ويزيد قربه من الله تعالى من خلال معاناة التكليف وتطويع غرائزه وشهواته واهوائه للخضوع لامر الله تعالى ونهيه، وتمكين احكام الله من اهوائه وشهواته ... بارادة ووعي.

ان المعـانـاة النفسية التي يتـطلبه قهر الهوى والغرائز والشهوات بالارادة والوعي هي التي تنمي الانسان وتقربه الى الله تعالى وتمنحه الكمال والقرب... اما الارادة المسخرة التي تعمل من دون وعي وارادة ان تكره على عمل فلا يكون لعمله دورا كبيرا في هذه الحركة التكاملية، كما لا يتطلب عمله معاناة وجهدا بهذا المعنى.

الميثاق والعبودية

ان الميثاق يربط الانسان، بعهد و ثيق مع الله تعالى يلتزم بموجبه بالطاعة والتسليم والانقياد... ويتخلى عن حريته بشكل كامل، ويسلم امر نفسه لله تعالى عن ارادة ووعي، ويلتزم التزاما مطلقا بحدود الله تعالى وشريعته في علاقته مع الله ومع نفسه، ومع الاخرين، ومع الاشياء، ويحكم امر الله تعالى على اهوائه وغرائزه وشهواته.

وليس فقط يحكم امـر الله تعـالى ونهيه على جوارحـه واعضـائه، وانما على جوانحـه، وفـؤاده، وقلبه ايضا: **﴿ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسؤولا﴾**[1]، وبموجب هذا الوثاق يخضع الانسان نفسه لرقابة الله، كما يخضع نفسه

(١) الاسراء: ٣٦.

لرقابة ذاتية شديدة دقيقة تحصي عليه تصرفاته بشكل دقيق.

فالانسان الذي يرتبط بالميثاق الالهي ـ اذن ـ يتخلى عن كامل حريته ورغباته، وشهواته، ويخضع كل ذلك لامر الله تعالى ونهيه، ولا يملك من امر نفسه شيئا، وهو معنى العبودية.

يقول تعالى ﴿ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء﴾[1]

فما دام الانسان عبدا مملوكا لله يقر بذلك على نفسه، فلا يملك من امر نفسه شيئا ولا يقدر على شيء الا باذن الله تعالى.

وهذا التصور لموقع الانسان ومركزه في الارض يختلف اختلافا كبيرا عن التصور الذي تملكه الحضارة الجاهلية الغربية والشرقية عن الانسان وموقعه في الارض.

ان الحرية والديمقراطية التي تكرسها الجاهلية الحديثة كلها تصدر من منبع واحد، وتؤدي الى نتيجة واحدة، وهي التحلل والاباحية، التحلل من التزامات العبودية لله تعالى، والابساحية المطلقة في ممارسة اللذات والشهوات والاهواء.

وهذه الاباحية والتحلل ميراث الجاهلية القديم الذي توارثته الجاهلية جيلا بعد جيل بصور واشكال مختلفة.

ان الحضارة الجاهلية تقوم على اساسين اثنين، يناقضان المسألة المحورية في دين الله تعالى وهو العبودية والالتزام.

الاساس الاول: هو التحلل من كل قيد والتزام في تحديد نزوات الانسان الغريزية وشهواته واهوائه، واطلاق العنان للشهوات، والاهواء باسم (الحرية)، الا بقدر ما يؤدي الى القضاء على الحرية نفسها.

فتتعهد الحضارة الجاهلية بامر التعديل والتحديد بالمقدار الذي يسمح لهذه

(٢) النحل: ٧٥.

الاهواء والشهوات جميعا بممارسة التحلل والانطلاق، وممارسة اللذات[١].

فالاصل في الحضارة الجاهلية (الحرية) ويتنازل الانسان عن حريته، بالمقدار الذي يسمح له بالمحافظة على سائر جوانب حريته، والحرية في هذه الحضارة هي المسألة المحورية، بينما الاصل المسألة المحورية في الاسلام هو العبودية والالتزام بعكس الحضارة الجاهلية تماما.

والاساس الثاني: في الحضارة الجاهلية نفي سلطان الله تعالى وحاكميته على حياة الانسان، واحلال الانسان نفسه في موضع (الله تعالى) في السلطان والحاكمية ومعنى ذلك عدم الاعتراف بحاكمية الله تعالى وتمكين الانسان من ان يحكم نفسه بنفسه.

وفي الحقيقة ان الديمقراطية الحديثة، حيث تعمل على احلال الانسان في موضع الله تعالى في الحاكمية والسلطان، تمارس ابشع الوان (الاستكبار).

فان (الاستكبار) في القران، هو الاستعلاء على امر الله تعالى وعدم الخضوع لحكم الله، وامره ونهيه ورفض سلطان الله، وتحكيم الاهواء والشهوات.

يقول تعالى ﴿افكلما جاءكم رسول بما لاتهوى انفسكم استكبرتم﴾[٢].

وهذا هو الاستكبار والاستعلاء على امر الله تعالى ونهيه، وحكمه، وسلطانه، والتسليم والانقياد للهوى.

وتأملوا معي في هذه الآيه العجيبه من سورة ال عمران التي تكشف لنا بوضوح الاعماق والجذور الحقيقية للجاهلية.

﴿وطائفه قد اهتهم انفسهم، يظنون بالله غير الحق، ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الامر من شيء﴾[٣].

(١) نتحدث عن الصيغة العلمية للجاهلية، اما الطريقة العملية للجاهلية فتقترن بمآسي اخرى كثير غير مأساة الانفلات من الضوابط.

(٢) البقرة: ٨٧. (٣) آل‌عمران: ١٥٤.

تأملوا في كلمة: ﴿قد اهمتهم انفسهم﴾ اي اخذت شهواتهم واهواءهم منهم كل اهتمامهم، وتمكنت اهواءهم وشهواتهم من ازمّة امورهم؟

ثم تأملوا في قوله تعالى ﴿تظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية﴾فما هذا الظن الذي تظنه الجاهلية بالله تعالى؟ انهم لاينفون وجود الله عزوجل غالبا، ولكن يؤمنون بالله لايزاحمهم في شؤون حياتهم، ولا يتصدى لشؤونهم واعمالهم ومناهجهم، ويترك لهم حرية الحياة والفساد، وممارسة اللذات، والشهوات.

ثم نتوقف عند هذه الفقرة العجيبة في الاية الكريمة:﴿هل لنا من الامر من شيء﴾ ـ اذن ـ فهؤلاء يطالبون الله تعالى بحصتهم في الحكم والسلطان، وبما لهم من امر الله تعالى في هذه الحياة، ويستغربون الا يكون لهم شيء في امر الالوهيةوالحكم والسلطان، ويطالبون رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بحصتهم في هذا الامر.

ان هؤلاء قد يؤمنون بالله ولكن يعرفون الله على طريقتهم الخاصة، ويتعاملون مع الله تعالى بتلك الطريقة، فيريدون من الله بصراحة ان لايتدخل في شؤونهم وحياتهم، وان لايزاحمهم في شهواتهم، واهوائهم، ولذاتهم، وان يترك لهم الدنيا وما فيها من اللذات والشهوات، وان يكون خط الدين في حياتهم في حدود الطقوس التي لاتمس مصالحهم، ولاتصادر لذاتهم، ولاتحدد شهواتهم.

وهذه هي (الديمقراطية) بصراحة ووضوح.. لون صارخ للشرك بالله تعالى، واشراك الانسان في شأن الالوهية والحاكمية الالهية ان لم يكن بمعنى استبداد الانسان بشوون الالوهية والحاكمية.

ان الثورة الفرنسية اسقطت صنما، واحلت محله صنما جديدا، اسقطت صنم عائلة آل بور الذين كانوا يستبدون بالحكم والامر في فرنسا وابدلت هذا الصنم بصنم جديد هو الشعب.

وسحبت صلاحيات السلاطين، والملوك الغاصبين، والمعتدين على حقوق الله تعالى وسلطانه لالكي تعيده الى مالكه الحقيقي، وهو الله، وانما لكي تعطيه لغاصب

جديد وهو الشعب، ليستبد بحق الله تعالى، في حياة الانسان.

تلك هي الحضارة الجاهلية في اصولها الرئيسية، ونحن المسلمون اخذتنا في فترة من فترات الخمول والضياع من حياتنا بهرجة هذه الحضارة وبريقها، فاخذنا نركض من وراء هذه المفاهيم والافكار التي صدرتها الينا الجاهلية الغربية والشرقية، نلتمس لها في الاسلام شواهد وادلة ونصوحا.

ومن هذا المفاهيم (الحرية) و(الديمقراطية) و(الاشتراكية) التي حرص جملة من الكتاب على التماس النصوص الاسلامية الملائمة لها في المصادر الاسلامية.

والاسلام في حقيقته شيء اخر يختلف اختلافا جوهريا عن هذا التوجه الجاهلي في مسألة الحرية والاباحة والانفلات عن حاكمية الله تعالى وسلطانه.

ان الاسلام ـ في كل مراحله في عصور النبوات المختلفة ـ قائم على اساس العبودية لله تعالى، والالتزام والتسليم المطلق لامر الله، وهذهالعبودية هي الدعوة الاولى، والدعوة المحورية لكل الانبياء والمرسلين ـ عليهم السلام ـ الذين بشروا بالاسلام.

يقول تعالى:

﴿ولقد ارسلنا نوحا الى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره﴾[1].

﴿وقال المسيح يابني اسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم﴾[2].

﴿والى عاد اخاهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله﴾[3].

﴿والى ثمود اخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله﴾[4].

﴿والى مدين اخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله﴾[5].

(١) الاعراف: ٥٩.

(٢) المائدة: ٧٢.

(٣) الاعراف: ٦٥.

(٤) الاعراف: ٧٣.

(٥) الاعراف: ٨٥.

﴿ولقد بعثنا في كل امة رسولا ان اعبدوا الله﴾.[1]

﴿وابراهيم اذ قال لقومه اعبدوا الله﴾.[2]

﴿ان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاعبدون﴾.[3]

* * *

جولة في المصطلحات الاسلامية:

ونظرة سريعة الى المصطلحات الاساسية في الاسلام والتي تشكل حجر القاعدةللفكر الاسلامي توضح عمق مفهوم (العبودية)في الاسلام، واهتمام هذا الدين بتكريس حالة التعبد والالتزام والانضباط في حياة الانسان. ومن هذه المصطلحات الشريعة:يقول تعالى ﴿ثم جعلناك على شريعة من الامر فاتبعها﴾.[4]

بمعنى النهج والخط، وهما يلازمان الضبط بشكل واضح، فان الشريعة تطلق في اللغة على المجرى الذي يعمله الناس للماء... وهذا التنظيم لمجرى الماء، في الوقت الذي يوصل الماء الى مناطق بعيدة تحتاج الى السقي تضبط جريان الماء، وتحفظ الماء من الضياع والهدر... وهذا الضبط والتحديد هو عمل الشريعة ومهمتها. وكذلك الشريعة بمعناها المصطلح الاسلامي تؤدي نفس الدور من الضبط والكف والتحديد في حياة الانسان.

فان الشريعة تتكون من الاحكام الخمسة (الوجوب والحرمة والاستحباب والكراهة والاباحة).

وهذه الاحكام تقوم بتنظيم وضبط حياة الناس، سلبا وايجابا والزاما، او على صعيد الترغيب والكرامة وحتى (الاباحة) تنطوي على معنى الالتزام والضبط، فان

(١) النحل: ٣٦.

(٢) العنكبوت: ١٦.

(٣) الانبياء: ٩٢.

(٤) الجاثية: ١٨.

المسلم عندما يمارس المباح انما يسمح لنفسه بممارسته من حيث اباحة الله تعالى له.

ومن هذه المصطلحات مصطلح (الحد) و (الحدود) يقول تعالى.

﴿تلك حدود الله فلا تقربوها﴾[١] وهو بمعنى التحديد، والكف، والضبط لسلوك الانسان.

وهكـذا مصـطلح (الحكم) ﴿ان الحكم الا لله يقضي الحق وهـو خير الفاصلين﴾[٢] ﴿ان الحكم الا لله امـر الا تعبدوا الا اياه﴾[٣] من مادة الاحكام، واصله المنع، وهو-كما نجد-في نفس الاتجاه الذي شرحناه.

وكذلك مصطلح (الورع) بمعنى الكف و (العصمة) بمعنى الحفظ... ويحكي القـران الكريم عن امرأة العزيز موقفا ليوسف ـ عليه السلام ـ جدير بالتأمل: ﴿ولقد راودته عن نفسه فاستعصم﴾[٤] اي تحرى ما يعصمه عن الفاحشة كما يقول المفسرون اما انا فاعتقد ان في هذه الكلمة: (فاستعصم) من القوة والطاقة شيء اكثر من هذه الترجمة الضعيفة، وكأنني اجد في استعصام يوسف ـ عليه السلام ـ لجوء الى الله تعالى ليعصمه يشبه الاستغاثة كمن يلقي بنفسه في حصن منيع دفعة واحدة ليحميه من حيوان مفترس.

ومهما كان فان هذا الاتجاه واضح في كلمة العصمة والاستعصام.

و (الحصار) و (الحصن) من هذه المصطلحات الواردة في القران الكريم بصيغة او باخرى، يقول الله تعالى عن يحيى عليه السلام ﴿وسيدا وحصورا﴾[٥].

والحصور من الحصار، وهو الذي يضع نفسه في حصار من امر الله تعالى وحكمه يحميه من الشيطان واعتدائه وسلطانه.

(١) البقرة: ١٨٧.

(٢) الانعام: ٥٧.

(٣) يوسف: ٤٠.

(٤) يوسف: ٣٢.

(٥) ال عمران: ٣٩.

ويقول تعالى عن مريم عليها السلام ﴿والتي احصنت فرجها﴾[١] وكانها ـ عليها السلام ـ قد حمت عفتها بالتحصين، وحصنت نفسها من كل سوء وهوى بحصن منيع من تقوى الله.

وكذلك مصطلح (التقوى) الذي ورد في القران الكريم كثيرا جدا يقول تعالى ﴿وتزودوا فان خير الزاد التقوى﴾[٢] من الوقاية والضبط وكف النفس.

وهـذه المصطلحات كثيرة، وهي اساسية ومحورية في الفكر الاسلامي، تحدد توجه هذا الدين وخطه الفكري باتجاه الضبط والكف، والإحكام، والورع والتحديد، والعبـودية، بعكس الاتجـاه الشائع في فكر الحضارة الجاهلية الداعي الى الاباحية، والتحلل، والحرية، والخروج عن سلطان الله تعالى وحدوده وامره وهيمنته.

وان كان لابد من التـنـويه بموضع (الحرية) في الاسـلام، ودور الاسـلام في تحرير الانسان، فهو تحريره من اسرالشهوات والاهواء، وتمكينه من الخروج من قبضة سلطان الهوى والعزيزة، والتحكيم على الهوى ونوازع النفس.

فبينما يقع الناس في قبضة اهوائهم وشهواتهم، وتحكم فيهم شهواتهم بصورة مطلقة، ويعطي الناس ازمّة امورهم جميعاً لسلطان الاهواء في نفوسهم ... فان الانسان المسلم ينفلت من قبضة سلطان الهوى، ويحرر نفسه من نفوذ وتأثير وحاكمية الهوى، ويتحكم على غرائزه واهوائه، ويطوعها لامر الله تعالى ونهيه.

وهذه النقطة من اهم عناصر دعوة الانبياء ـ عليهم السلام ـ يقول تعالى في بيان مهام دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله ﴿ويضع عنهم اصرهم والاغلال التي كانت عليهم﴾[٣].

وهو بمعنىٰ تحرير الانسان من الاغلال والقيود التي تعرقل مسيرته وحركته الى الله تعالى.

الميثاق اسمى انواع العبودية

في العقود والمواثيق يلتزم كل من الطرفين عادة بالتزامات، ويقابل كل التزام

(١) الانبياء: ٩١. (٢) البقرة: ١٩٧. (٣) الاعراف: ١٥٧.

من احد الطرفين تعهدا من الطرف الاخر... وهذا عرف شائع في المواثيق.

اما في ميثاق العبودية والطاعة الذي يأخذه الله تعالى من عباده، فلا يقابله شيء، وليس في مقـابل هذه الطاعة المأخوذة في الميثاق شيء من الثواب يستحقه الانسان، وليس في مقابل ميثاق الطاعة الا استحقاق الطاعة لله تعالى على عبادة الذي يستتبع الربوبية ﴿أَلست بربكم﴾؟

فالطاعة في مقابل استحقاق الطاعة، والميثاق والالتزام في مقابل الربوبية، والله تعالى اهل للطاعة والحب، مستحقها على عباده بربوبيته.

واما صور الثواب والجزاء الواردة في ايات الميثاق، والمترتبة على العمل بالميثاق، فليست هي المقابلة للميثاق، وكما ليست صور العقاب الواردة في ايات الميثاق هي الموجبة للعمل بالميثاق... فان الاقرار بربوبية الله تعالى كاف لهذا الالزام، والتعهد والميثـاق، وصـور الثواب والعقاب في ايات الميثاق تكريم من الله تعالى للاخذين بالميثاق، وعقوبة على التلخف عن الميثاق.

ومثل ذلك مع بعض الفوارق ـ مثل الجوائزوالهدايا التي توزعها المدارس على طلابهـا المتفـوقـين والنـاجحـين، والعقـوبـات المدرسية التي تفرضها المدرسة على المتخلفـين... فليست هذه الهـدايا والجوائز ولا تلك العقوبات هي الملزمة والموجبة للطالب بالدراسة والاجتهاد فيها... بل هو طلب العلم، وانما تؤدي هذه الهدايا دور التشجيع للطالب، كما تؤدي العقوبات دور تخويف الطالب من التخلف عن الدراسة ولن يكـون هذا التشجيع والتخـويف باعثا على الدراسة والاجتهاد فيها الا للطلبة المتخلفين في الوعي، اما الطالب الواعي فهو يدرس لتحصيل العلم فقط.

وهذا المعنى واضح في اية الميثاق في سورة الاعراف ﴿واذ اخذ ربك من بني ادم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على انفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين﴾.(١)

فالعامل الوحيد الذي يلزم الانسان بالميثاق في هذه الاية الكريمة هو الاقرار

(١) الاعراف: ١٧٢.

بالربوبية ﴿ألست بربكم؟ قالوا بلى﴾ وليس ما وراء ذلك شيء.

والايات التي تشير الى الثواب والعقاب في شأن العاملين بالميثاق والمتخلفين عنه شأنها ما ذكرنا من امر الترغيب والترهيب كقوله تعالى:

﴿الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق، لهم عقبى الدار، جنات عدن يدخلونها، ومن صلح من ابائهم وازواجهم وذرياتهم﴾(١).

وقوله تعالى في بني اسرائيل:

﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم، وجعلنا قلوبهم قاسية﴾(٢).

فاللعن وقسوة القلوب من الاثار التكوينية والجزائية المترتبة على نقض الميثاق يخوف الله به عباده، لكن العامل الملزم للانسان بالميثاق هو الاقرار بالربوبية.

وهذه الطاعة النابعة من الميثاق، والقائمة على اساس الاقرار بالربوبية، والايمان باستحقاق الله تعالى للطاعة على عبادة.... هو افضل انواع الطاعة والعبادة، بل نستطيع ان نقول هي الصيغة الوحيدة للعبودية، والعبادة، بمعناهما الدقيق او الكامل في مقابل العبادة والطاعة النابعتين من خوف العقاب ورجاء الثواب.

ولابد لهذا الاجمال من تفصيل منقول:

ان هناك ثلاثة انواع من العطاء والعمل وهي:

١ـ الاحسان

٢ـ الوفاء ٣ـ العمل للجزاء والاجر.

الاحسان:

اما الاحسان فهو حب الخير والجود والعطاء لذاته ، من دون اي توقع او ترقب للمقابلة من الطرف الاخر في المستقبل، ومن دون ان يكون هذا الاحسان جزاء

(١) رعد: ٢٠ ـ ٢٤.

(٢) المائدة: ١٢ـ١٣.

على عمل صالح للمحسن اليه فيما سبق، كما تعطف الام على رضيعها الصغير، ويعطف الاب على اولاده الصغار، وكما تعطف على طفل صغير يتعرض للغرق او الحريق فتخاطر بنفسك لانقاذه دون ان تبتغي في ذلك جزاء واجرا[١].

ومثل الاحسان مثل العين التي تنبع بالماء بصورة عفوية دون ان يكون في هذا النبع لحاظ للمقابلة.

وكذلك في نفس الانسان نبع يتدفق بالخير في حالة سلامة الفطرة، وحب الى الخير من دون اي توقع ومقابلة.

وسيد المحسنين هو الله تعالى، وهذا الكون والوجود كله من احسانه تبارك وتعالى لم يرد به مقابلة احد في جميل فعله من قبل، وهو الاول والاخر ولم يقصد به اجرا وجزاء من عباده في المستقبل، وهو الغني عن عباده تبارك وتعالى.

ففعله الاحسان، و شأنه الجود والكرم، ولاحد لاحسانه وجوده، وانما تختلف حظوظ الناس والاشياء من احسانه وكرمه لاختلاف الاستعدادات واختلاف الاواني في قبول رحمة الله تعالى وفضله واحسانه، والا فليس في احسان الله تعالى وفضله شح او بخل اوحد.

ارايت المطر ينزل من السماء غزيرا، فيأخذ منه كل اناء بقدر سعته واستعداده فتمتلأ منه البحيرة الكبيرة، ويمتلأ منه الحوض الصغير،، وتمتلا منه الحفرة الصغيرة ويمتلأ منه الكأس بقدره والقدح بقدره.

﴿ انزل من السماء ماء فسالت اودية بقدرها﴾[٢] كذلك تنزل رحمة الله تعالى عزيرة، ومن دون حدودفياخذ منه كل شيء وكل شخص بقدر انائة.

واختلاف الاستعدادات والاواني، منه ما يعود الى ذات الاشياء وماهيتها لا يمكن ان يتغير، كاختلاف الحجر عن الانسان، فان استعداد ذات الحجر و ما هيته لقبول رحمة الله بالمقارنة مع الانسان استعداد محدود، والله تعالى اذ يخلق الحجر

(١) وقد لاينتبه الانسان لمسألة التقرب الى الله بهذا الفعل، وانما يصدر منه الخير صدورا عفويا كما يحدث كثيرا.
(٢) الرعد: ١٧.

والانسـان ويفيض عليهما الوجود، ويخرجهما من دائرة الاعدام الى دائرة الضوء ودائرة الوجود لايبخل على احدهما ويجود على الاخر بما يبخل به على الاول، وانما الاختلاف في ذات وماهية كل منهما، واستعداد كل منهما في قبول نعمة الوجود، فيكون للانسان من الحظ من نعمة الوجود مالا يكون للحجر.

وقد يكون هذا الاختلاف في الاستعداد امرا كسبيا، فيكتسب الانسان بالعلم والعمل من الاستعداد والقابلية لقبول نعم الله تعالى واحسانه ما لا يكون لفاقدهما ويكون اختلاف استعداد الناس في قبول رحمة الله تعالى بمقدار حظهم من العلم والعمل.

الوفاء:

اما الوفاء فهو نوع اخر من العطاء يلحظ فيه المقابلة للاحسان في الماضي دون ان يلحظ فيه اي توقع للاجر والجزاء في المستقبل.

والوفاء هو مقابلة الاحسان، ولكن بدون اي توقع للاجر والجزاء في المستقبل.

كما يفي الابن لوالديه، وكما يفي التلميذ لاستاذه، وكما يفي الضيف لمضيفه، وفي كل ذلك لايتوقع الانسان اجرا وجزاء في المستقبل، وبالتالي لايصدر الانسان في الوفاء عن رجاء ثواب، ولا عن خوف عقاب، فان امر الثواب والعقاب للمستقبل والوفاء في مقابل الاحسان فيما مضى.

وبـذلك فان قيمة الوفاء دون قيمة الاحسان، لان الاحسان لا يلحظ فيه المقابلة للماضي ولاللمستقبل اصلا، ولكن يلحظ في الوفاء عنصر المقابلة، الا ان هذه المقابلة تحتفظ برقة خاصة ولطف خاص في المعادلات والمقابلات، فان المقابلة تنصب على الماضي فقط، وليس فيه لحاظ للاجر والثواب والعقاب في المستقبل، وليس فيه اثر للطمع والخوف، وبالتالي ليس فيه اثر للذات والأنا.

العمل في مقابل الجزاء:

واما العمل الصادر في مقابل الاجر والجزاء فيلحظ فيه اولا ـ المقابلة والموازنة للاجر والجزاء.

وهذا الاجر والجزاء يتعلق بالمستقبل، ثانيا، وليس من شأن الماضي فيكون ناشئاً عن الخوف والطمع، والخوف والطمع من شؤون المستقبل، ولذلك فان رائحة (الذات) و(الأنا) تفوح منه بصورة واضحة وقوية.

والطرف الاخر من هذه الموازنة والمعادلة الجزاء والاجر[١].

الجزاء:

وفي الجزاء، وهو الطرف الثاني من هذه القضية عنصر المقابلة، وليس فيه عنصر الموازنة والمعادلة.

فان الجـزاء غير (المكافأة) ففي المكافأة يلحظ التكافؤ الكمي والكيفي بين العمل والجزاء، ومقابلة النعمة بكفؤها. ولذلك، لم يصف القران الكريم عطاء الله تعالى في جزاء عباده بالمكافئة، وانما وصفه بالجزاء فقط.

ويعطي الله تعالى جزاء العاملين في كل عمل باحسن ما كان من نوعه في حياة الانسان، وليس بمقدار ذلك العمل وحجمه وكيفيته.

والى هذا الاكرام يشير القران الكريم.

﴿ليجزيهم الله احسن ما كانوايعملون﴾[٢]

(١) يستعمل الجزاء في النافع والضار يقول تعالى «وجزاء سيئة سيئة مثلها» الشورى: ٤٠.
ويقول تعالى ﴿وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا﴾ الانسان: ١٢.
واما الاجر فلا ياتي إلاّ في النافع ﴿بلى من اسلم لله وهو محسن فله اجره عند ربه﴾
﴿ان الله لا يضيع اجر المحسنين﴾ البقرة: ١٢٠.

(٢) البقرة: ١١٢. (٣) التوبة: ١٢١.

﴿ولنجزين الذين صبروا اجرهم باحسن ما كانوا يعملون﴾[(١)].

﴿ولنجزينهم اجرهم باحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله﴾

﴿ولنجزينهم اجرهم باحسن ما كانوا يعملون﴾[(٢)]

﴿ولنجزيهم الله احسن ما عملوا ويزيدهم من فضله﴾[(٣)]

﴿ولنجزيهم احسن الذي كانوا يعملون﴾[(٤)].

ونلحظ في الجزاء:

١ـان الجزاء من الله اولا في مقابل العمل، ولكن ليس بوزن العمل وحجمه، وكيف يمكن ان يوزن ما هو زائل بما هو باق: ﴿ما عندكم ينفد وما عند الله باق﴾[(٥)].

٢ـ وحتى في هذه المقابلة يختار الله تعالى من عمل كل عامل من كل نوع افضله واشرفة، فيختار من صلاته افضل صلواته واشرفها واكثرها حضورا للقلب واخلاصا، ويجعلها مقياسا للمقابلة بالجزاء في سائر صلواته.

ولنوضح هذا المعنى توضيحا اكثر:

يختار المدرسون في امتحان الطلاب طريقتين: فقد يخضع الطالب في مادة واحدة لعدة امتحانات فيجعل المدرس بازاء كل امتحان درجة الطالب في ذلك الامتحان فيكون درجته جيدة في امتحان ورديئة في امتحان اخر.

وقد يجمع هذه الدرجات جميعا ويقسمها على عدد الامتحانات، ويستحصل في ذلك معدلا لدرجة توفيق الطالب وفشله في تلك المادة.

وهاتان طريقتان معروفتان في الجزاء في سائر شؤون الانسان ايضا.

(١) النحل: ٩٦.

(٢) النحل: ٩٧.

(٣) النور: ٣٨.

(٤) العنكبوت: ٧.

(٥) النحل: ٩٦.

اما الله تعالى فانه يختار من كل مادة من عمل الانسان كصلاته، وصيامه، وزكاته، وجهاده، افضل افرادها، ثم يجعل ذلك الفرد مقياسا للجزاء لسائر افراد تلك المادة من عمله فيجزي كل صلاة له بثواب افضل صلواته وهكذا صيامه وحجه وانفاقه.

وذلك كما ترى معنى قوله تعالى ﴿ليجزيهم الله احسن ما كانوا يعملون﴾.(١)

ودفعا لبعض ما قد يرد على الذهن من الشبهة نقول: ان سعى كل انسان وكدحه الى الله تعالى وجهده في العمل والعبادة، يرفعه الى مرحلة من مراحل القرب من الله تعالى، يتحدد بجهده وعمله ضمن هذه المرحلة، كما يتقدم الطالب بجهده وعمله من مرحلة الى مرحلة دراسية.

وتختلف مستويات الناس ودرجاتهم في القرب والبعد من الله تعالى، باختلاف هذه المراحل.

ولكل مرحلة سقف وارض (حد اعلى وحد ادنى) وتتردد طاعة العبد وجهده في كل مرحلة بين هذين الحدين، فقد يقبل على الله تعالى في العبادة والعمل باخلاص، فيكـون في قمة المرحلة، وقد تنتابه فترات الفتور والضعف، فيكون عمله في الحد الادنى من المرحلة.

فاذا جزى الله تعالى عباده باعمالهم فانه عز شأنه يجزي كل عبد في كل عمل بافضل فرد من ذلك العمل، وهو الفرد الذي يقع في اعلى مستوى من المرحلة التي بلغها بجهده وعمله في سلوكه وكدحه الى الله.

وبـذلك نان هذا الفصل العظيم يقترن بالعدل الالهي، ولايودي، الى تداخل هذه المراحل من مستويات العبادة في قربهم الى الله تعالى.

٣ـولا يتوقف فضل الله تعالى ورحمته بعباده عند هذا الحد، فان الله بعد ذلك يزيد العبد من عنـده ما شاء من فضله ورحمتـه ﴿ليجزيهم الله احسن ما عملوا

(١) التوبة: ١٢١.

ويزيدهم من فضله﴾.[١]

تلخيص للاحسان والوفاء والعمل للجزاء:

ونعود مرة اخرى لنلخص هذه النقاط فنقول:

الاحسان هو العطاء من دون نظر الى مقابلة اصلا، وهو ارق هذه المعاني جميعا.

والوفاء هو مقابلة الاحسان بالوفاء، ولكن من دون نظر الى المستقبل ومخاوفه ومطامعه.

ويأتي الوفاء في المرحلة الثانية بعد الاحسان في الرقة واللطف، لان المقابلة ليس بمعناها التجاري الذي يحمل رائحة الطمع و (الذات) و (الانا) و (الخوف).

واما العمل في مقابل الاجر والجزاء، فهو دون هذه المراتب والمراحل جميعا وفيه تبرز (الذات) (والانا)، ومطامعها ومخاوفها بوضوح ويكون العمل فيه للجزاء والاجر فقط، وليس لان الله تعالى يستحق الطاعة والعبادة منه،وفيه الشيء الكثير من نكران الفضل لله، وتناسي رحمة الله تعالى واحسانه اليه، وتركيز النظر الى الاجر والجزاء في المستقبل.

ولو كانت رحمة الله واحسانه بعبده تشغل قلب العبد وفؤاده بالشكر لشغله احسانه تعالى اليه فيما مضى عن الاجر والجزاء فيما ياتي، ولشغله الشعور بجميل الله تعالى اليه عما وعده في المستقبل من الثواب والعقاب.

وان من دناءة النفس وسقوط الهمة انينسى الانسان كل رحمة الله الواسعة واحسانه اليه في حياته، وينصرف بقلبة وفواده عن كل ذلك، ويشغله وعد الله تعالى روعيده في المستقبل عن كل جميل وفضل لله تعالى في حياته.

ومثل ذلك، ان يطلب الوالدمن ابنه امرا ويعده بجائزة فيما اذا انجز هذا الامر

(١) النور: ٣٨.

فينصرف الابن من كل فضل ابيه اليه في هذه الفترة من عمره وينفذ امر الوالد لا اكراما له ووفاءاً لحقوقه بل للطمع فيما وعده به.

ان اقل ما يوصف به هذا التعامل للولد مع ابيه انه تعامل يفقد القيم الاخلاقية وسمو النفس، ويتصف بدناءة النفس.. وكان حريا بالابن ان يشغلة عرفان الجميل لوالده والوفاء له عن هذا الحطام الذي وعده به من حطام الدنيا.

فالوفاء والعمل رجاء الجزاء، طريقتان في التعامل تتصف اولاهما بالسمو في التعامل والاخرى بسقوط الهمة ودناءة النفس.

والكلام نفسه يجري في علاقة العبد بالله تعالى.

ان الطريقة الصحيحة في التعامل مع الله عزوجل: هو ان يصدر الانسان في الطاعة والعبادة عن عرفان الجميل والوفاء لله تعالى ، فتكون عبادته وطاعته لله نابعة عن الشعور بان الله تعالى اهل للطاعة والعبادة، وحتى لو لم تكن جنة ولانار ولو لم يكن ثواب ولاعقاب كان ينبغي ان يستشعر هذا الجميل، والفضل الالهي الشامل، ويلزمه هذا الشعور بالعبادة والطاعة والشكر.

وقد روي ان فاطمةبنت علي بن ابي طالب ـ عليه السلام ـ اتت الى جابر بن عبد الله،فقالت لهياصاحب رسول الله ان لنا عليك حقوقا اذا رايتم احدنا يهلك نفسه اجتهادا ان تذكروه الله وتدعوه الى البقاء على نفسه، وهذا علي بن الحسين بقية ابيه الحسين قد انخرم انفه ونقبت جبهته وركبتاه وراحتاه، اذاب نفسه في العبادة فأتي جابر اليه فاستاذن فلما دخل عليه وجده في محرابه قد انصبته العبادة[١] فنهض علي فساله عن حاله سؤالا حفيا ثم اجلسه بجنبه.

ثم اقبل جابر يقول يابن رسول الله اما علمت ان الله انما خلق الجنة لكم ولمن احبكم، وخلق النار لمن ابغضكم وعاداكم ؟ فما هذا الجهد الذي كلفته نفسك.

(١) اي اتعبتـه واعيته.

قال له علي بن الحسين ياصاحب رسول الله اما علمت ان جدي رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فلم يدع الاجتهاد وتعبد هو حتى انتفخ الساق وورم القدم وقيل له، اتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال: افلا اكون عبد شكور(١).

عن امير المؤمنين علي ـ عليه السلام ـ: ان قوما عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار وان قوما عبدو الله رهبة فتلك عبادة العبيد، وان قوما عبدوه شكرا فتلك عبادة الاحرار(٢).

وعن الامام الصادق ـ عليه السلام ـ: ان العباد ثلاثة قوم عبدواالله عزوجل خوفا فتلك عبادة العبيد، وقوم عبدوا الله تبارك وتعالى طلب الثواب، فتلك عبادة الاجراء وقوم عبدواالله عزوجل حبا له فتلك عبادة الاحرار، وهي افضل العبادة(٣).

وعنه ـ عليه السلام ـ ايضا (ان الناس يعبدون الله على ثلاثة اوجه فطبقة يعبدونه رغبة في ثوابه، فتلك عبادة الحرصاء، وهو الطمع، واخرون يعبدونه فرقا من النار فتلك عبادة العبيد، وهي رهبة ولكني اعبده حبا له عزوجل فتلك عبادة الكرام وهو الامن لقوله عزوجل ﴿وهم من فزع يومئذ امنون﴾ولقوله عزوجل ﴿قل ان كنتم تحبون الله﴾ فمن احب الله احبه الله ومن احبه الله عزوجل كان من الامنين)(٤)

وعن الامام زين العابدين ـ عليه السلام ـ قال اني اكره ان اعبد الله ولاغرض لي الا ثوابه فاكون كالعبد الطمع المطمع، ان طمع عمل وإلالم يعمل واكره ان (لا) اعبده الا لخوف عقابه فاكون كالعبد السوء ان لم يخف لم يعمل.

قيل فلم تعبده؟

(١) نور الثقلين: ٥/٥٥ـ٥٦.

(٢) بحار الانوار: ٧٨/٦٩.

(٣) بحار الانوار: ٧٠/٢٥٥واصول الكافي: ٢/٨٤.

(٤) بحار الانوار: ٧٠/٢١٠ ومستدرك وسائل الشيعه: ١/٢٧٧ و ١/٢٢٧.

قال: لما هو اهله باياديه علي وانعامه)[١].

وعن الامام الرضا ـ عليه السلام ـ: لو لم يخوف الله الناس بجنة ولانار، لكان الواجب عليهم ان يطيعوه ولا يعصوه لتفضله عليهم واحسانه اليهم، وما بدأهم من انعامه الذي ما استحقوه)[٢].

ان العلاقة بالله تعالى اكبر قضية في حياة الانسان على الاطلاق، وقيمة الانسان ودرجته عند الله تعالى بمقدار علاقته بالله تعالى،وكلما تكون هذه العلاقة اكثر نقاء وصفاء، تكون قيمته عند الله تعالى اعظم، ولذلك فان النهج التربوي عند اهل البيت ـ عليهم السلام ـ يوجه الناس دائما الى تصفية وتنقية هذه العلاقة من كل شوائب الذات والانا والاصرار على خلوص هذه العلاقة ونقائها من كل شائبة، تتعلق بالذات والانا .

ومن عجب ان الانا ، والذات تندس بصورة خفية في هذه العلاقة في الصميم من حيث لايشعر الانسان فتفسد جو هذه العلاقة، ويفقدها الصفاء والنقاء المطلوبين في هذه العلاقة.

ويحتاج الانسان الى جهد تربوي كبير ليستطيع ان يطهر هذه العلاقة من كل شائبة ترتبط بالذات والانا من قريب او بعيد.

فقد يخلص الانسان في عمله لله تعالى ويأتي بالعمل بنية القربة الى الله وتصح منه النية، ولكن عندما يبحث في اعماق وخلفيات هذه النية، يجد الانا من وراء هذه النية، والسعي لتحصيل الثواب والامن من العقاب من وراء هذه النية.

ولا نريدان نسلب شرعية هذه النية والعمل الصادر عن هذه النية ولكن من المؤكد ان هذه العلاقة ليست هي العلاقة المثالية في ارتباط الانسان بالله تعالى.

والعلاقة الحقيقية الخالصة هي التي تصفو وتخلص من كل شوائب (الانا)،

(١) بحار الانوار: ٢١٠/٧٠ ومستدرك الوسائل: ١٠/١.

(٢) بحار الانوار: ١٧٤/٧١، اخذنا الروايات من كتاب ميزان الحكمه: ١٧/٣ ـ ١٨.

وتكون خالصة صافية، نقية، وتبعث الانسان على الطاعة والعبادة حتى، لو لم تكن جنة ولا نار.

ولكي يتمكن الانسان من تطهير العلاقة مع الله تعالى من شوائب الذات لابد ان يعمل لأرساء هذه العلاقة على اساس من الحب لله تعالى، والشوق اليه والانس بذكر الله والشكر والوفاء، وعرفان الجميل... عند ذلك تكون علاقته بالله قائمة على اسس صافية ونقية، ليس فيها من الانـا شيء وحتى لو امن العقاب وضمن الثواب من دون حاجة الى عمل.... اقبل على العمل والعبادة والطاعة عن شوق وحب ووفاء وعرفان للجميل... وهذه هي طريقة الانبياء والصديقين في عبادة الله تعالى.

الاشهاد على الميثاق

الشهادة بمعنى الحضور، وانمايقال للشاهد شاهد، لانه حضر الواقعة التي هي موضع الشهادة.

وللشهادة مرحلتان مرحلة تحمل الشهادة، ومرحلة الاداء، وفي المرحلة الاولى يحضر الشاهد الواقعة، ويلتقط بالحضور المعلومات الدقيقة الحسية عن الواقعة، وهذه هي (مرحلة تحمل الشهادة)، ومن دون الحضور والمشاهدة الحسية لايتم عمل الشاهد في هذه المرحلة، وفي المرحلة الثانية يؤدي الشاهد عند القاضي ما سجله من المعلومات بصورة دقيقة، وبذلك يؤدي الشهادة.

ولذلك فلا بد ان يكون الامر الذي يشهد به الشاهد مما يستطيع احد ان يلم به ويحيط به، فلو رمى شخص صيدافاصابت الرمية فقتله، انسانا ولم تكن القرائن تشهد بالعمد، فان الشاهد لا يستطيع ان يشهد باكثر من الاصابة والقتل..اما العمد والخطا ـ لولا القرائن ـ فامر يتعلق بنية الرامي، ولا يستطيع ان يشهد به الشاهد، والشاهد الذي يستطيع ان يشهد في هذه القضية ينبغي ان يكون على اطلاع بنية الرامي، او يكون له حضور في نية الرامي، وله معرفة بضمير القاتل ونيته.

والشهادة على اصل الميثاق امر من هذا القبيل فان الاقرار بالله تعالى والتعهد له بالطاعة والعبودية يتم من خلال الفطرة والاستنتاجات العقلية، وهو امر يتم في عمق فطرة الانسان وعقله، ولا يتيسر الشهادة لكل احد.

فلابد ان يكون الشاهد الذي يشهد على الانسان بالميثاق له حضور ومعرفة بما يجري في فطرة الانسان فمن هم هؤلاء الشهود، الذين تتوفر لهم هذه المعرفة بباطن الانسان، وضميره وغيبه حتى تتم لهم الشهادة ؟

هؤلاء الشهود ثلاثة:

١ـ الله جل جلاله ٢ـ ورسله ـ عليهم السلام ـ ٣ـ والانسان نفسه.

والقران الكريم يصرح بالشهود الثلاثة، وتعالى الله من ان تقترن شهادته بشهادة عباده ﴿**واذ اخذ الله ميثاق النبيين لما اتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه، قال ءاقررتم واخذتم على ذلك اصري ؟ قالوا: اقررنا، قال: فاشهدوا وانا معكم من الشاهدين**﴾.

﴿**فمن تولى بعد ذلك فاولئك هم الفاسقون**﴾[(١)].

والله تعالى هنا يامر رسله بالشهادة على هذا الميثاق ﴿**قال: فاشهدوا**﴾ ويقول لهم ﴿**وانا معكم من الشاهدين**﴾.

والله تعالى محيط بعباده، بصير بقلوبهم ودواخلهم وفطرتهم، وشاهد وحاضر في الظاهر والباطن.

﴿**وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الارض ولا في السماء، ولا اصغر من ذلك، ولا اكبر الا في كتاب مبين**﴾[(٢)].

﴿**ولقد خلقنا الانسان: ونعلم ما توسوس به نفسه، ونحن اقرب اليه من حبل الوريد**﴾[(٣)].

(١) ال عمران: ٨١ـ٨٢.

(٢) يونس : ٦١.

(٣) ق: ١٦.

﴿وكفى بالله شهيدا﴾[١].

﴿وكان الله بما يعملون محيطا﴾[٢].

واما الرسل عليهم السلام فقد اشار القران الكريم الى شهادتهم في اكثر من موضع ﴿وجيئ بالنبيين والشهداء، وقضي بينهم بالحق، وهم لايظلمون، ووفيت كل نفس ما عملت، وهو اعلم بما يفعلون﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم، ورسوله، والمومنون، وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾[٤].

فالله تعالى ورسوله وائمة المؤمنين وصالح المؤمنين، بالتأكيد ليس المقصود من المؤمنين كلهم بشهادة الوجدان، وانما المراد من المؤمنين نخبة منهم وهم ائمة المؤمنين وصالح المؤمنين يرون اعمال العباد، ولهم حضور في اعمالهم وتعرض اعمال العباد عليهم، ويشير الى ذلك قوله تعالى في سورة القدر: ﴿تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل امر﴾[٥].

فعلى من تتنزل الملائكة والروح في ليلة القدر باذن الله تعالى من كل امر ؟

ان الروايات الاسلامية تقول: ان الملائكة والروح ينزلون في ليلة القدر على رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ والائمة الراشدين من بعده.

وقد ورد في الحديث ان اعمال العباد تعرض على رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ كل صباح ومساء، ابرارها، وفجارها، فاحذروا، وليستحي احدكم ان يعرض على نبيه العمل القبيح[٦]. ويقول تعالى ﴿ويوم نبعث في كل امة شهيدا عليهم من انفسهم،

(١) نساء: ٧٩.

(٢) نساء: ١٠٨.

(٣) زمر: ٦٩ـ٧٠.

(٤) التوبة: ١٠٥.

(٥) القدر: ٤.

(٦) تفسير القمي: ٢٧٩.

وجئنا بك شهيدا على هولاء، ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾[١].

ويقول تعالى ﴿فكيف اذا جئنا من كل امة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا﴾[٢].

ويقول تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم امة وسطا لبكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾[٣].

وروي العياشي (رحمه الله) في تفسير اية الشهادة من سورة النساء قال: قال على بن ابي طالب (عليه السلام) في صفة يوم القيامة: يجتمعون في موطن يستنطق فيه جميع الخلق، فلا يتكلم احد إلامن اذن له الرحمن وقال صوابا فيقام الرسل فيسأل، فذلك قوله﴿فكيف اذا جئنا من كل امة بشهيدوجئنا بك على هؤلاء شهيدا﴾ وهو الشهيد على الشهداء والشهداء هم الرسل[٤].

والشاهد الثالث على الانسان هو الانسان نفسه يقول الله تعالى في اية الميثاق ﴿واشهدهم على انفسهم ألست بربكم؟ قالوا: بلى شهدنا ان تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين﴾[٥].

ومهما يفر الانسان من شيء، فلا يستطيع يوم القيامة ان يفر من نفسه، فهو يشهد على نفسه وهو بصير بامر نفسه لاتخفي عليه خافية في نفسه ﴿بل الانسان على نفسه بصيرة، ولو القى معاذيره﴾[٦] فمهما القى من معاذير لمخالفاته وتمرده وخروجه على الميثاق، فهو على بصيرة من امر نفسه، ولا يمكن ان يخدع نفسه، فاذا كان هو الشاهد على نفسه، فالى من يمكن ان يهرب من هذه الشهادة.

* * * *

(١) النحل: ٨٩.

(٢) النساء: ٤١.

(٣) البقرة: ١٤٣.

(٤) تفسير العياشي: ٢٤٢/١ المكتبه العلمية الاسلامية طهران.

(٥) الاعراف: ١٧٣. (٦) القيامة: ١٤ـ١٥.

والاشهاد الوارد في القران الكريم في الميثاق على نحوين:

اشهاد على اصل الميثاق واقرار الانسان بربوبية الله تعالى، والعبودية له وهو ما تحدثنا عنه.

والنحو الثاني: من الاشهاد الاشهاد على الوفاء بالميثاق والنقض له (والعمل بالميثاق والتخلف عن الميثاق)، وهذا اشهاد غير الاشهاد الاول[١].

والشاهد في هذا الحفل هو الله تعالى والانبياء والملائكة، واعضاء الانسان نفسه وجوارحه والاشياء.

يقول تعالى: ﴿**وما تكون في شأن، وما تتلوا منه من قرآن، ولا تعملون من عمل، الا كنا عليكم شهودا**﴾[٢] وهذه هي شهادة الله (جل وعلا).

وعن شهادة الملائكة يقول تعالى﴿**اذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال، قعيد، ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد**﴾[٣].

ويقول تعالى: ﴿**وان عليكم لحافظين، كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون**﴾[٤].

وعن شهادة الاعضاء والجوارح يقول تعالى:

﴿**اليوم نختم على افواههم، وتكلمنا ايديهم، وتشهد ارجلهم بما كانوا يكسبون**﴾[٥].

ويقول تعالى:﴿**يوم تشهد عليهم السنتهم، وايديهم، وارجلهم، بما كانوا يعملون**﴾[٦].

ويقول تعالى:﴿**ويوم يحشر اعداء الله الى النار، فهم يوزعون حتى اذا ما**

(١) استشهدنا ببعض الروايات الدالة على اشهاد الرسل (عليهم السلام) على النحو الثاني عند استعراض الاشهاد على النحو الاول لوحدة معنى الشهادة فيهما ووضوح القصد.

(٢) يونس : ٦١.

(٣) ق: ١٧ ـ ١٨.

(٤) انفطار: ١١ـ١٣.

(٥) يس : ٦٥.

(٦) النور: ٢٤.

جاؤوها شهد عليهم (سمعهم، وابصارهم، وجلودهم، بما كانوا يعملون وقالوا لجلودهم: لم شهدتم علينا ؟ قالوا: انطقنا الله الذي انطق كل شيء، وهو خلقكم اول مرة واليه ترجعون﴾[١].

وعن شهادة الانبياء والامكنة يقول تعالى:

﴿اذا زلزلت الارض زلزالها واخرجت الارض اثقالها وقال الانسان ما لها يومئذ تحدث اخبارها، بان ربك اوحى لها﴾[٢].

فالارض يومئذ تحدث بما جرى عليها من افعال العباد من خير وشر واصلاح وافساد[٣].

الوفاء بالميثاق

﴿الذين يوفون بعهد الله، ولا ينقضون الميثاق.. اولئك لهم عقبى الدار، جنات عدن، يدخلونها، ومن صلح من ابائهم، وازواجهم، وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾[٤].

التسليم لله:

الوفاء بالميثاق هو التسليم لامر الله تعالى، والانقياد المطلق عن رغبة وطواعية، وان يسلم الانسان كل امره لله تعالى، ولا يبقى لنفسه من نفسه شيئا، ويخضع كل رغباته وغرائزه واهوائه لحكم الله تعالى، ويكون موقفه من حكم الله تعالى، دائماً، موقف التسليم المطلق من غير تردد ولاتلجلج ولا تراجع.

(١) فصلت: ١٩ـ٢١.

(٢) الزلزال: ١ـ٥.

(٣) في المجلد السابع من كتاب المعاد (معاد شناسي) للعلامة السيد محمد حسين الطهراني بحث جيد عن الشهادة نرجع القاري اليه.

(٤) الرعد: ٢٠ـ٢٤.

﴿يا ايها الذين امنوا ادخلوا في السلم كافة ولاتتبعوا خطوات الشيطان﴾[١].

تسليم كامل لامر الله، ودخول في دائرة السلم المطلق لله، وتحكيم حلال الله وحرامه على كل شؤونه واوضاعه، والالتزام باحكام الله، من دون حدود وقيود وبلااعتراض او تحفظ، ومن دون ان يخالج صاحبه شك او ريب او حرج في الاستجابة لامر الله تعالى ونهيه:

﴿فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم، ثم لايجدوا في انفسهم حرجا مما قضيت، ويسلموا تسليما﴾[٢].

ذلك هو معنى الدخول في دائرة السلم، وهو معنى الاستجابة للميثاق: ايمان، وطاعة، وتسليم.

﴿يا ايها الذين امنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الامر منكم، فان تنازعتم، في شيء، فردوه الى الله والرسول﴾[٣].

﴿ياايها الذين امنوا اطيعوا الله ورسوله، ولا تولوا عنه وانتم تسمعون، ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا، وهم لا يسمعون﴾[٤].

طاعة لله وللرسول، وتحكيم لحكم الله فيما يشجر من خلاف، وفيما يامر الله به ورسوله.

وما عدا ذلك فهو من التخلف عن الميثاق، والاعراض عن الله، واتباع خطوات الشيطان، والايذان بحرب من الله.

﴿فان لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله﴾[٥].

وليس لهذين الشقين ثالث، وليس بينهما برزخ لايتصل بهذا، ولا يتصل بذاك،

(١) البقرة: ٢٠٨.

(٢) النساء: ٦٥.

(٣) النساء: ٥٩

(٤) الانفال: ٢٠ـ٢١.

(٥) البقرة: ٢٧٩.

فاما ان يكون الانسان مسلما لله تعالى، قد سلّم امره كله لله تعالى، وانقاد له، ودخل في دائرة السلم (وهذه الحالة بالطبع درجات ومراحل)، واما ان يكون مؤذنا بحرب من الله، ومشاقا لله تعالى، ومحاربا له، ومحاددا ومؤذيا لله ولرسوله، وصادا عن سبيل الله.

مشاقة الله:

والذين يخالفون امر الله تعالى، ويتمردون على احكامه يصفهم الله تعالى بهذه الاوصاف العجيبة ـ التي تجعل الانسان في شق غير شق الله، ومانعا وصادا عن سبيل الله، وفي جبهة المحاربين لله ولرسوله، وانها لتهز الانسان من الاعماق، ان ينتقل الانسان من جبهة السلم لله الى جبهة المحاربين لله ولرسوله والذين يصدون عن سبيل الله... اولئك الذين ينذرهم الله بالخزي في الدنيا والعذاب الاليم في الاخرة **﴿ذلك بانهم شاقوا الله ورسوله، ومن يشاق الله فان الله شديد العقاب﴾**(١).

﴿ان الذين يحادون الله ورسوله، اولئك في الاذلين﴾(٢).

﴿ان الذين كفروا، وصدوا عن سبيل الله، وشاقوا الرسول، من بعدما تبين لهم الهدى، لن يضروا الله شيئا وسيحبط اعمالهم﴾(٣).

﴿ان الذين يؤذون الله ورسوله، لعنهم الله في الدنيا والاخرة، واعد لهم عذابا مهينا﴾(٤).

﴿الم يعلموا انه من يحادد الله ورسوله، فان له نار جهنم خالدا فيها ذلك الخزي العظيم﴾(٥).

﴿انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله، ويسعون في الارض فسادا: ان

(١) الحشر: ٤.
(٢) المجادلة: ٢٠.
(٣) محمد (ص): ٣٢.
(٤) الاحزاب: ٥٧.
(٥) التوبة: ٦٣.

يقتلوا او يصلبوا... ذلك لهم خزي في الدنيا، ولهم في الاخرة عذاب عظيم﴾[١].

ان الخروج عن دائرة السلم لله، ومخالفة امر الله تعالى، والتمرد على احكامه: بغي واستكبار على الله وطغيان، وحرب لله ولرسوله، ومشاقة، ومحاددة لله ولرسوله، وصد عن سبيل الله، وايذاء لله ولرسوله.

وان الانسان ليرتعش من الاعماق ان يتصور ان يقف في موقف المواجهة والحرب من الله تعالى ورسوله ولو لم يكن هناك انذار بالخزي واللعن في الدنيا وعذاب اليم في الاخرة.

سلام في الدينا:

فإذا خرج الانسان من جبهة المحاربين لله ولرسوله وجبهة البغي، ودخل في دائرة السلم لله فان الله تعالى سوف يهديه الى سبل السلام في الدينا ويرزقه الأمن والسلام في الاخرة.

والجزاء هنا في الدنيا والاخرة يأتي من سنخ العمل نفسه. فلما كان الانسان المؤمن يترك جبهة المحاربين لله ولرسوله، والصادين عن سبيل الله والاستكبار، والبغي، وايذاء الله ورسوله... فان الله (عزوجل) في المقابل يهديه الى سبل السلام في الدنيا، ويرزقه الأمن والسلام في الاخرة.

﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه﴾[٢].

هذا في الدنيا:

وفي الاخرة **﴿لهم دار السلام عند ربهم، وهو وليهم بما كانوا يعملون﴾**[٣].

(١) المائدة: ٣٣.

(٢) المائدة: ١٤ـ١٥.

(٣) الانعام: ١٥٧.

﴿الذين يوفون بعهد الله، ولا ينقضون الميثاق... اولئك لهم عقبى الدار، جنات عدن، يدخلونها، ومن صلح من ابائهم وازواجهم،وذرياتهم،والملائكة يدخلون عليهم من كل باب، سلام عليكم بما صبرتم، فنعم عقبى الدار﴾(١).

اما في الدنيا فان التسليم لامر الله تعالى يهدي الانسان الى حياة مسالمة آمنة مع اولياء الامور، ومع المجتمع، ومع اسرته، ومع نفسه، ومع الاشياء، ويشعره بالأمن، والسلام في نفسه.

فهو سلم لاولياء الامور، الذين فرض الله تعالى طاعتهم عليه، يستشعر تجاههم بالولاء والحب، ويلتزم ازاءهم بالطاعة والنصيحة والتسديد، ويشعر ان ولايتهم من ولاية الله، وحبهم من حب الله، وطاعتهم من طاعة الله، ما داموا على نهج الله ورسوله، فلا يستشعر من ناحيتهم خوفا على نفسه، ولا يحس تجاههم بحقد او كره.

ويعيش مع المجتمع في امن، وسلام، فقد حرم الله دمه وعرضه، وماله على المسلمين كما حرم دماء، واعراض، واموال الاخرين عليه(٢).

فهو يأمن الاخرين على نفسه، وعرضه، وماله، ويؤمن الاخرين على انفسهم واعراضهم، واموالهم، ويشعر ان العلاقة التي تربطه بالاخرين من المؤمنين في المجتمع هي اقوى واسمى علاقة ممكنه في هذه الدنيا، علاقة الاخوة في الله **﴿انما المؤمنون اخوة﴾**(٣).

وسلام مع اسرته واهله وذويه، يحفظ لهم حقوقهم ويحفظون له حقوقه، ويصلهم ويصلونه،ويرعاهم، ويكرمهم، ويرعونه ويكرمونه.

وسلام مع النفس... فلا تعيش مع نفسه في قلق وحيرة وتناقض، فهو مطمئن واثق الى اتجاهه وعقيدته وعمله، حتى في اقسى الحالات، واشدها، لايناقض نفسه،

(١) الرعد: ٢٠ـ٢٤.

(٢) عن رسول الله (ص) كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله.

(٣) الحجرات: ١٠.

ولايتخبط في عمله، ولا يعـاني من صراع داخـلي، كما يعاني الناس منه... كله ثقه واطمئنان، ورضـا، حتى في اشد الحالات واقساها، في الباساء، والضراء، منسجم مع نفسه، ومع فطرته، وضميره، وعقله، لايعاني من تو بيخ ومؤاخذة الضمير، ولايلجأ الى تخطئة عقله وتعمية الهدى في قلبه، ولايعـاني من زلزال في عقله وقلبه في حالة الفتنة والابتلاء، انسجام، ورضا ، وثقة، واطمئنان،وشعـور عميق بالأمن في داخل النفس.

وسـلام مع الاشياء والكـون، فقد خلقه الله تعالى، وجعله خليفة على هذه الارض وما فيها، وخلق هذه الارض وسخرها له، فهذه الاشياء من حوله خلقها الله تعالى لخدمتـه وسخرها له، وخلقه الله تعالى ليوليه امر هذه الارض، وما فيها بعدل واحسان، ويكون خليفة له ـ جل شانه ـ عليها جميعا، فهو يشعر تجاهها بهذه الآصرة الغريبة المركبة من الخدمة والانقياد من جانب، والخلافة والولاية من جانب اخر، ويشعر تجاهها بانه وهذا الكون وما فيه يمضون لتنفيذ ارادة الله ومشيئته تعالى، وتنطق عليهم سننه واحكامه وقوانينة جميعا.

ان الاستجـابة لامر الله تعالى وحكمه يهدي الانسان الى سبل السلام في حياته الشخصية، والاجتماعية، وفي ذات نفسه، وتملأ حياته بالثقة، والرضا والاطمينان والاحسـاس بالأمن والسـلام، في كل الحـالات وتنقـذه من كل عوامـل القلق والاضطراب، والعذاب النفسي، والعقد التي يعاني منها الانسان في الحضارات الجاهلية.

﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه﴾[1].

وسلام في الآخرة:

واما في الاخـرة، يوم الفـزع الاكبر فهم امنون، يهدي اليهم ربهم السلام والامن، وتسلم عليهم ملائكة ربهم، ويبعثون في انفسهم الأمن والطمانينة.

(١) المائدة: ١٤ـ١٥.

﴿وهم من فزع يومئذ آمنون﴾[1].

من فزع، وليس من عذاب فقط، فلا يمسهم العـذاب، ولا يمسهم الفزع ايضا، وهذه مرحلة عالية جدا في الاحساس بالأمن يوم الفزع الاكبر.

﴿فاولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا،وهم في الغرفات امنون﴾[2].

ومن اسماء الجنة (دار السلام) وهذه التسمية تثبت واحدة من ابرز صفات الجنة ومعالمها، وهي الحياة بسلام، والاحساس بالسلام، والتعامل مع الاخرين بسلام فلا بغضاء، ولا حسد ولا ضغينة في الجنة، قد نزع الله تعالى كلها في القلوب من غل، واجلسهم على سرر متقابلة ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين﴾[3].

وليس بهم من خوف ولا قلق ولا ارتبـاك في الجنة ولا يخافون العذاب، ولا يخافون المرض، ولا يخافون الفقر، ولا يخافون الموت، ولا يخافون الظلم، ولا يخافون الابتلاء:

احساس بالامن من كل جانب، واحساس المحبة وشعور مشترك بالارتياح تجاه الاخرين تلك بعض ملامح السلام في الجنة.

والله تعالى يؤكد هذه الصفة من صفات الجنة في اكثر من اية.

﴿لهم دار السلام عند ربهم﴾[4].

﴿والله يدعوا الى دار السلام﴾[5].

ويدعون الى الدخول الى الجنة بسلام وامن

(١) النمل: ٨٩.

(٢) سبا: ٣٧.

(٣) الحجر: ٤٧.

(٤) الانعام: ١٢٧.

(٥) يونس: ٢٥.

﴿ادخلوها بسلام امنين﴾[١].

ولا يدور فيما بينهم في الجنة في اللقاء من تحية غير السلام ﴿تحيهتم فيها سلام﴾[٢].

ثم لا يسمعون فيهــا لغــوا ولا اثما، بعضهم من بعض الا سلاما سلاما﴿لا يسمعون فيها لغوا الا سلاما﴾[٣].

﴿لا يسمعون فيها لغوا، ولا تاثيما، الا قيلا سلاما سلاما﴾[٤]. فليس هناك من قول يسمعونه، يغيظهم، او يقلقهم، او يسلبهم الأمن والراحة او يزعجهم، وكلما يسمعون من قول يزيدهم احساسا وشعورا بالأمن والسلام.

والملائكة يومذاك يبشرون عباد الله بالسلام من عند الله ويحيونهم بالسلام ﴿الذين تتوفاهم الملائكة، طيبين، يقولون: سلام عليكم، ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾[٥].

﴿وقال لهم خزنتها: سلام عليكم، طبتم، فادخلوهاخالدين﴾[٦].

﴿الذين يوفون بعهد الله، ولا ينقضون الميثاق... اولئك لهم عقبى الدار جنـات عدن يدخلونها ومن صلح من ابـائهم وازواجهم، وذرياتهم، والمـلائكـة يدخلون عليهم من كل باب: سلام عليكم بما صبرتم، فنعم عقبى الدار﴾[٧].

ان الملائكة تدخل عليهم من كل باب، ويقرؤونهم السلام بما صبروا، ويهدونهم السلام من ربهم السلام تبارك وتعالى.

(١) الحجر: ٤٦.
(٢) أبراهيم: ٢٣.
(٣) مريم: ٦٢.
(٤) الواقعة: ٢٦.
(٥) النحل: ٣٢.
(٦) الزمر: ٧٣.
(٧) الرعد: ٢٠ـ٢٤.

وفوق ذلك كله، وليس فوق ذلك شيء ان الله تعالى يسلم عليهم مباشرة، ﴿تحيتهم يوم يلقونه سلام﴾ تحية ولقاء من الله تعالى ﴿سلام قولا من رب رحيم﴾[1].

ذلك هو جزاء وفائهم للميثاق وصبرهم على تنفيذ الميثاق.

ويعجبني ان انقل في نهاية هذا الجزء من الحديث كلاما لفخر الدين الرازي من التفسير الكبير في السلام:

قال الرازي:

(اعلم ان الله تعالى سلم على المؤمن في اثني عشر موضعا، اولها انه تعالى كان سلم عليك في الازل، الاترى انه قال في وصف ذاته: ﴿الملك، القدوس، السلام﴾.

وثانيها: انه سلم على نوح، وجعل لك من ذلك السلام نصيبا، فقال: ﴿قيل يا نوح اهبط منها بسلام منا، وبركات على امم ممن معك﴾ والمراد منه أمة محمد (صلّى الله عليه وآله).

وثالثها: سلم عليك على لسان جبرائيل، فقال ﴿ تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم، من كل امر سلام، هي حتى مطلع الفجر﴾ قال المفسرون: انه (عليه الصلاة والسلام) خاف على امته ان يصيروا مثل امة موسى وعيسى (عليهما السلام) فقال الله لا تهتم لذلك فاني وان اخرجتك عن الدينا، الااني جعلت جبريل خليفة لك ينزل الى امتك كل ليلة قدر، ويبلغهم السلام مني.

ورابعها: سلم عليك على لسان موسى (عليه السلام)، حيث قال: ﴿والسلام على من اتبع الهدى﴾ فاذا كنت متبع الهدى وصل السلام اليك.

وخامسها: سلم عليك على لسان محمد (صلّى الله عليه وآله) فقال ﴿الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى﴾ وكل من هداه الله الى الايمان، فقد اصطفاه، كما قال: ﴿ثم اورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا﴾

(١) يس: ٥٨.

وسادسها:امر محمدا(صلّى الله عليه وآله) بالسلام على سبيل المشافهة فقال **﴿واذا جاءك الذين يؤمنون باياتنا، فقل: سلام عليكم﴾**.

وسابعها: امر امة محمد (صلّى الله عليه وآله) بالتسليم عليك فقال **﴿واذا حييتم بتحية فحيوا باحسن منها او ردوها﴾**.

وثامنها: سلم عليك على لسان ملك الموت، فقال **﴿الذين تتوفاهم الملائكة طيبين، يقولون سلام عليكم﴾** قيل ان ملك الموت يقول في اذن المسلم السلام يقرئك السلام، ويقول اجبني فاني مشتاق اليك، واشتاقت الجنات والحور العين اليك فاذا سمع البشارة يقول لملك الموت للبشير مني هدية، ولا هدية اعز على من روحي فاقبض روحي هدية لك.

وتاسعها: السلام من الارواح الطاهرة المطهرة، قال تعالى:**﴿واما ان كان من اصحاب اليمين فسلام لك من اصحاب اليمين﴾**.

وعاشرها: سلم الله عليك على لسان رضوان، خازن الجنة، فقال تعالى:**﴿وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا..... وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم﴾**.

والحادي عشر: اذا دخلوا الجنة فالملائكة يزورونهم ويسلمون عليهم **﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾**.

والثاني عشر: السلام من الله من غير واسطة وهو قوله تعالى: **﴿تحيتهم يوم يلقونه سلام﴾** وقوله **﴿سلام قولا من رب رحيم﴾** ، وعند ذلك يتلاشي سلام الكل لان المخلوق لايبقى على تجلي نور الخالق[1].

نقض الميثاق

النقض ضد الميثاق فان الميثاق هو الربط والشد، والنقض ضد الشد

(١) التفسير الكبير للامام فخر الرازي: ١٠/٢١٠.

والربط يقول تعالى﴿كالتي نقضت غزلها﴾[١] وبنفس المعنى يأتي (النكث).

والميثاق هو ربط الانسان بالالتزامات الشرعية، والنقض هو حل الالتزامات والتحلل منها.

وقد اكد القران الكريم تأكيدا بليغا على الالتزام بالميثاق والعهد، يقول تعالى:

﴿وبعهد الله اوفوا﴾[٢] ﴿واوفوا بعهد الله اذا عاهدتم﴾[٣] ﴿ولا تشتروابعهد الله ثمنا قليلا﴾[٤] ﴿واوفوا بالعهد ان العهد كان مسؤولا﴾[٥].

ويدعو الله تعالى عباده ان يوفوا بعهودهم لله (عزوجل) ليفي بعهده لهم ﴿واوفوا بعهدي، اوف بعهدكم واياي فارهبون﴾[٦].

ولامر ما يغلظ القران الكريم امر الميثاق، بهذه الصورة المؤكدة، فان اساس الدين والارتباط بالله تعالى، والالتزام بحدود الله قائم على الميثاق، والخلل في الميثاق يؤدي الى الخلل في كل هذا البناء العظيم الذي يقيمه الاسلام على اساس الميثاق.

فكيف يحدث الخلل في الميثاق؟:

ان الميثاق يتكون من عنصرين ١ـ الوعي ٢ـ العزم

وباختلال اي من هذين يختل الميثاق، فلا بد من وعي للربوبية وللعبودية وهذا هو الجانب النظري من القضية، ولا بد من عزم على الالتزام بالطاعة والتسليم وهذا هو الجانب العملي من الميثاق.

فاين يحدث الخلل في الميثاق اولا؟

(١) النحل: ٩٢.

(٢) الانعام: ١٥٢.

(٣) النحل: ٩١.

(٤) النحل: ٩٥.

(٥) الاسراء: ٣٤.

(٦) البقرة: ٤٠.

ان الخلل يحدث اول ما يحدث في (العـزم)، فيضعف الانسـان عن الالتزام ومكافحة الشهوات والاهواء فيتخلف عن الالتزام، ويستتبع الخلل في العزم.

ومن هنا حدث الخلل في العهد الذي اخذه الله تعالى من ابينا ادم ـ عليه السلام ـ عندما قال له ﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾[1].

ولا بد ان نشير هنا الى ان هذا الامر لم يكن امرا مولويا، يستتبع مخالفته العصيان، ولم يكن ادم وحواء عليهما السلام في عالم التكليف، وانما كان امرا ارشاديا تستتبع مخالفته جملة من الاثار والتبعات التكوينية، والذي كان منها خروج ادم من الجنة، هو وذريته، وانتقاله الى عالم التكليف.

وتلك هي المخالفة الاولى في حياة الانسان، واستتبعت هذه المخالفة مخالفات كثيرة من ذرية ادم للميثاق.

فمن المهم ان نعرف كيف حدثت هذه المخالفة؟

ان الخلل ظهر في عزم ادم ـ عليه السلام ـ اول ما حدث. وضعف ادم ـ عليه السلام ـ عن اغواء الشيطان، واغرائه وتناول من الشجرة المحرمة.

يقول تعالى ﴿ولقد عهدنا الى ادم من قبل، فنسي، ولم نجده له عزما﴾[2].

وكلمة (من قبل) كلمة ذات دلالة على طبيعة الانسان من ذرية ادم ـ عليه السلام ـ وطبيعة الخلل والصدع الذي يظهر في ميثاق بني ادم... ان هذا الخلل يحدث دائما في عزم بني ادم وتصميمهم، وارادتهم، كما حدث من قبل في عزم ابيهم ادم.

وان اول ما يختل من هذا البناء العظيم هو عزم الانسان وارادته وتصميمه، ويستتبع هذا الخلل خلل في الوعي والبصيرة وفي القلوب والافئدة والعقول.. وبذلك يتصدع هذا البناء وينهار، ويسقط الانسان من موقع الخلافة الالهية وحمل امانة الله.

وكيف يحدث ذلك؟

عنـدمـا يضعف الانسـان عن مواجهة الشهوات والاهواء، ويضعف عزمه،

(١) البقرة: ٣٥. (٢) طه: ١١٥.

ويتراجع عن التزاماته وتعهداته يبدأ بتغطية انسحابه وتراجعه بالتضليل والتعمية، والتبرير، ويبدأ بالتنكر عن علم وعمد لوعيه وفطرته وعقله.

وعند ذلك يعاقبه‌الله تعالى، والعقاب هنا من نوع الجريمة وحيث استسلم الانسان للهوى، وعطل ارادته التي اعطاه‌الله تعالى اياها، وتنكر لفطرته وعقله وفؤاده، وقلبه، وصدره، فان الله تعالى يسلب منه ارادته وضميره وعزمه وفطرته وعقله وقلبه وفؤاده، جزاء تعطيله وتنكره لهذه المواهب الالهية.

ارايت لو انك اسكنت احدا بيتا يأويه، فلم ينتفع من البيت، وعمل على تخريب البيت وهدمه فماذا تصنع به ؟ ان اول ما تصنع به ان تحرمه من البيت نفسه، وتطرده من البيت.

وهذا هو بالذات العقوبة التي يعاقب الله تعالى بها المتخلفين عن الميثاق الذين عطلوا ارادتهم وعزمهم وعقولهم وفطرتهم.

يقول تعالى ﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية﴾.

اللعن والطرد عن ساحة الرحمة الالهية:

واللعن: هوالطرد من رحمة الله تعالى فمن اين يطرد هؤلاء ؟ ومن اي شيء يحرمون؟ان بني اسرائيل ـ والكلام موجة اليهم، في هذه الاية المباركة ـ كانوا يتمتعون بنعم الله تعالى كما يتمتع سائر الناس بالاكل والشرب، واستنشاق الهواء وسائر نعم الله في الحياة الدنيا.. ولاشك ان هذا اللعن يشمل الحياة الدنيا ايضا ان لم يكن خاصا بهذه الحياة، لموضع قوله تعالى، بعد ذلك ﴿وجعلنا قلوبهم قاسية﴾ فانها من مختصات الدنيا، على ما يظهر.

فمن اين يطردهم الله ؟ ومن اي شيء يحرمون وهم يتمتعون بكل لذات الحياة الدنيا؟

ونفس الكلام يجري في اصحاب الحضارات الجاهلية اليوم فان هذه الحضارات

حضارات جاهلية ملعونة ومطرودة من رحمة الله بلا شك... في الوقت الذي يتمتعون فيها بالكثير من نعماء الله ورحمته.

فيظهر ان الطرد هنا ليس من هذا النوع من النعمة، والرحمة، وانما من نعمة الايمان والذكر، وحب الله والشوق الى الله، والانس بذكره، ومن نعمة اليقين والبصيرة، ومن نعمة الشكر والدعاء والتضرع بين يدي الله ومن نعمة العبودية والطاعة.

وهذه هي النعم التي حرمها الله على الحضارات الجاهلية المعاصرة في الشرق والغرب وحجز عنها الانسان المستسلم لهذه الحضارات.

ولابد من ايضاح وتفصيل اكثر لمعنى (اللعن) والطرد في هذه الآية الكريمة... ونستعين على ذلك ببعض الامثلة.

ان المدرسة توفر للطالب فرصة للتربية والتعليم، فينتفع من اجواء المدرسة ودروسها، ومن خلال قناة المدرسة يكتسب كل تجارب وخبرات ومواريث السلف في التربية والتعليم، فاذا كان الطالب لاينتفع بالمدرسة ويعمل على افساد سائر الطلبة وتخريب الاجواء التربوية في المدرسة، فان الادارة تطرده من المدرسة، وبذلك تحرمه من الاستفادة من الفرصة التي تهيؤها له المدرسة... وهذا نوع من الطرد والحرمان.

وكذلك الامر في المجتمع.. فان المجتمع يمنح اعضاءه خيرا كثيرا في الحياة الاجتماعية من الثقة: والتسديد، والرأي، والمشورة، والتعاون، والعاطفة، والأمن والصحة، وغير ذلك... فاذا كان عضو المجتمع لاينتفع بهذه المواهب التي يوفرها له المجتمع، ويقوم بدور تخريبي في المجتمع فان المجتمع يعمل على طرده، وحرمانه من مواهب الحياة الاجتماعية،...والطرد هنا يتم بحبسه وسجنه ليحرم من مواهب الحياة الاجتماعية، ويسلم المجتمع منه.. وهذا نوع اخر من الطرد واللعن.

والذين ينقضون الميثاق، ويعطلون المواهب التي انعم الله تعالى بها عليهم من لحزم والبصيرة والفطرة، والعقل، فان الله تعالى يطردهم، من رحمته ويحجبهم من نعمة الذكر والحب، والبصيرة، والدعاء، والرهبة، والرغبة.

وهـذه المـواهب تنـزل من عند الله، كما ينزل المطر من السماء، فتستقبلها القلوب، وتـأخذ منها حظها بما اتاه الله تعالى من سعة الاناء وقابلية القبول. فاذا غضب الله تعالى على انسان اغلق ابواب ومنافذ قلبه عن هذه الرحمة النازلة من عنده، واولئك هم (القاسية قلوبهم) فلا يقدرون على ان ينالوا من هذه الرحمة الالهية النـازلـة شيئا، ولاتنفتح قلوبهم وافئدتهم وصدورهم على رحمة الله. وتتحجر قلوبهم، وتنغلق منافذها بصورة كاملة، وبهذه الطريقة يحجبهم الله ويطردهم عن رحمته الواسعة.

ويسجنهم في ذواتهم وانفسهم، كما يطرد المجتمـع العضو الفاسد من الحياة الاجتماعية، فيدخله السجن ليحجبه عن مواهب الحياة الاجتماعية والسجن هنا هو القلوب القاسية التي تسجن صاحبها، وتحجبه عن مواهب الله ورحمته، وبذلك يسلب عنهم نعمة الوعي، والفطرة، والبصيرة، والعقل، والارادة جزاء عملهم في تعطيل هذه النعم والمواهب الالهية.

وهكذا يقول القران الكريم:

﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية﴾.

وكأن قسوة القلوب تأتي في هذه الاية الكريمة في تفسير وبيان طريقة اللعن والطرد عن رحمة الله ﴿لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية﴾.

النفحات الالهية واوعية القلوب:

وأرى ان بيان العـلاقـة ما بين هاتـين الكلمتـين (اللعنة وقسوة القلوب)، وبـالمقابل (الرحمة ورقة القلوب) يحتاج منا الى مزيد من التوضيح والتشريح ومن القارئ الى مزيد من الصبر وسعة الصدر.

واليك هذا التوضيح:

ان اجهـزة (الاحسـاس) و (الوعي) في الانسان جميعا اجهزة (استقبال) وليست اجهزة (ارسال) فقط، والامر في اجهزة (الاحساس) اظهر منها في اجهزة

الوعي... فان اجهزة الاحساس الظاهرية حواس ظاهرة خاضعة للتجارب العلمية، بوضوح ويمكن ان نعرف ان طبيعة عمل هذه الاجهزة هي تلقي واستقبال المحسوسات، ونقلها الى الدوائر المختصة في الجسم لتشخيصها وتمييزها، واتخاذ الموقف الصحيح منها.

فالعين مثلا تستقبل الصور في الضوء، وكذلك حاسة الشم تستقبل الروائح، وهكذا احساس البرودة والحرارة، واحساس اللين والخشونة، وما الى ذلك من اجهزة الاحساس في الجسم.

وكذلك اجهزة الوعي والبصيرة كالفطرة، والعقل، والقلب والصدر (بمفاهيمها القرانية غير الفسلجية).. اجهزة استقبال وليست اجهزة ارسال فقط.. ومن دون ان تستقبل هذه الاجهزة الوعي والبصيرة والجذبات الالهية، والواردات القلبية، والمواهب الالهية، من عند الله لا تملك شيئا، وكل ما تحتفظ هذه الاجهزة في تكوينها الاولي هو الاستعداد لقبول المواهب الالهية النازلة على الانسان كل بحسب سعة انائه ومقدار استعداده[١].

فالقلوب والصدور- اذن -اوعية تستقبل مواهب الله تعالى كالوعاء غير ان الوعاء يستقبل كلما يلقي فيه من نافع وضار، ووعاء القلوب تستقبل فقط النفحات الربانية وترفض النفثات الشيطانية في حالة سلامتها.

(١) ليست فطرة الانسان وسائر الاجهزة الباطنية التي يستمد منها الانسان الوعي صفحات بيضاء كما يتصور علماء الاجتماع، تنطبع في كل بيئة اجتماعية بمفاهيم واعراف وقيم تلك البيئة وتتأثر في اي وسط اجتماعي بالمؤثرات الحضارية والمدنية في ذلك الوسط ... وليست في نفس الوقت كتابا ناجزا يستجمع بصورة فعلية كل مقومات وقيم الانسان، وانما هي مجموعة من الاستعدادات المغروسة في عمق فطرة الانسان الاستعدادات المغروسة في الخلايا الوراثية بالقوة، تستقبل المواهب الالهية، بصورة مستمرة، ويتحول بموجبها من القوة الى الفعل، كما تحتفظ ايضا بمناعة كافية لرفض الخطوط المنحرفة عن الفطرة،في حالة سلامة الفطرة.

تستقبل وترفض هذا الاستعداد والقوة من جانب، وتلك المناعة الفطرية من جانب اخر، وعندما تفسد الفطرة ويعطل صاحبها دورها في نفسه فيضعف فيها هذا الاستعداد فيقل نصيبها من الواردات والمواهب الالهية كما يضعف فيها هذه المناعة فيفروالانحراف والوساوس الشيطانية صاحبها بمقدار المناعه في الفطرة.

وتعبير الامام امير المؤمنين عن القلوب في كلامه لكميل بن زياد تعبير دقيق ومعبر حيث يقول: (ان هذه القلوب اوعية وخيرها اوعاها)[١].

وهذا هو احد الطرفين في هذه القضية، واما الطرف الاخر فهو المواهب التي تنزل من عند الله تعالى على قلوب عباده باستمرار، وتتلقاه القلوب كما تتلقى الاوعية مطر السماء.

يقول القران الكريم ﴿وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الابقدر معلوم﴾[٢].

فهناك رحمة نازلة من عند الله ـ من غير شك ـ يتلقى منها كل انسان ما يسعه اناؤه وقد وردت في حديث الكساء المشهور بين الفريقين كلمة تشير الى هذا المعنى بهذا المضمون ان رسول الله (صلّى الله عليه وآله) (لما رأى الرحمة نازلة دعا عليا وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام وجمعهم تحت كساء واحد ودعا الله تعالى بان يطهرهم فنزلت فيهم اية التطهير ﴿انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾.

وفي النصوص الاسلامية اشارات واضحة الى هذه النفحات الالهية النازلة على الناس:

عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله): «ان لربكم في ايام دهركم نفحات فتعرضوا له لعله ان يصيبكم نفحة منه فلا تشقون بعده ابدا»[٣].

وعنه (صلّى الله عليه وآله) ايضا تعرضوا لنفحات الله فان لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده[٤].

(١) نهج البلاغة حكمه: ١٤٧.
(٢) الحجر: ٢١.
(٣) كنز العمال ج٤: ٣٢/ ٢.
(٤) كنز العمال ج٥: ٣٢ / ٢.

وورد ايضا عن رسول الله (ان لربكم في ايام دهركم نفحات الا فتعرضوا لها)[١].

وورد ايضا بنفس المعنى عن الامام الصادق ـ عليه السلام ـ عن رسول الله صلّى الله عليه وآله في فضل شهر رجب: سمى شهر رجب شهر الله الاصب لان الرحمة على امتي تصب صبا فيه[٦].

والقلوب والصدور والافئدة والعقول هي الاوعية التي تتلقى هذه النفحات الربانية، لكل على قدر سعة انائه واستعداده.

وليس ما نجده في نفوسنا من بصيرة وحب لله تعالى، وشوق اليه ورهبة منه وخشوع وانس بذكره ـــــ دعاء وصلاة وسائر حالات العبودية، والبصيرة من فعل قلوبنا، فانما قلوبنا اوعية ـ لاتملك اكثر من الاستعداد لتلقى النفحات الربانية وانما هي من فعل هذه النفحات الالهية التي تنزل على القلوب والصدور فتفعل في النفوس فعلها، وتخلق فيها هذه الحالات من الحب، والدعاء، والذكر والبصيرة.

وهذه النفحات الربانية لاتنقطع عن الارض

ويختلف حالها من وقت الى وقت، فقد تنزل على الانسان، نزولا، وقد تصب عليه صبا وتختلف في ذلك حال الامكنة والازمنة ففي يوم عرفة في وادي عرفة لاتنزل هذه الرحمة كما تنزل في سائر الايام، وسائر الاماكن، وانما تصب الرحمة الالهية وتطهره تطهيراً منقطع النظير، ولا يبقى احد في وادي عرفة، الا وتشمله هذه الرحمة الالهية وتطهرة الا ان يكون ممن قد شمله حكم اللعن والطرد من رحمة الله تعالى من قبل كقاتل النفس المحرمة والمبتدع في دين الله.

وفي اشهر رجب ورمضان، تصب الرحمة الالهية، على عباد الله اقوى واكثر من سائر الاشهر.

(١) المحجة البيضاء: ١٥/٥.
(٢) بحار الانوار: ٣٩/٩٧.

وهكذا تختلف درجات نزول النفحات الالهية، من حين الى حين، ومن زمان الى زمان ومن مكان الى مكان، ولكنها لاتنقطع ابدا... فان هذا الرحمة اذا انقطعت عن القلوب جفت القلوب، كما تجف الارض اذا انقطع عنها مطر السماء.

وهذه النفحات الربانية في الأغلب تأتي على نحوين:

١ـ جذبات ربانية ٢ـ وواردات قلبية (الالهام).

ولكل من هذين النوعين من النفحات الربانية طريقته الخاصة في العمل في القلوب السليمة، نشير اليها ان شاء الله.

١ـ الجذبات الالهية:

اما الجذبات الالهية فانها تجذب القلوب السليمة الى الله تعالى جذبا بدرجات مختلفة على قدر استعداد الانسان، للدخول في دائرة الجاذبية الالهية هذه الجذبات تدخل القلوب وتجذب القلوب والافئدة، وتفعل فعلها في قلوب عباد الله، وتظهر في حياة الانسان على صورة حب الله، والشوق الى الله، وذكر الله والانس بذكر الله والصلاة، والدعاء، والمناجاة والانقطاع الى الله... وما الى ذلك من الوان العلاقة بالله تعالى.

يذكر العارف الرومي في كتابه (المثنوي) قصة على نحو التمثيل مضمون هذه القصة (ان عبدا كان يذكر الله في اناء الليل كثيرا، فاتاه الشيطان قائلا: الى متى تذكر الله ولايأتيك الجواب، ولايلبي الله دعوتك

فانقطع العبد عن ذكره، وانكسر قلبه بذلك فرأى في منامه هاتفا يناديه من جانب الله لماذا توقفت عن الذكر؟ فهل ندمت على دعائك.

فقال: ان الله لايلبي دعائي وذكري، واخشي ان اكون مرفوضا عند الله.

فقال له ان ذكرك لله هو تلبية الله لك، وتضرعك بين يدي الله، وحرقة دعائك وذكرك هو رسالة الله اليك، ودعوته لك.

ان الله يقول لك: انا الذي القيت الذكر عليك، وانا الذي شغلت قلبك بذكري ان كل سعيك في التماس الطريق الينا (الى الله) هو امر من جذبنا وامرنا.

وان هذه الرهبة والحب الذي في صدرك امرمنا، وانا الذي اوقعتك في شراك حبي ورهبتي، وجذبتك الي.

فانا الذي القي في قلوب عبادي رهبتي وحبي لاجذبهم الى ولاستعمل قلوبهم واشدهم الي اما قلوب الغافلين فمخرومة من الدعاء لانني انا الذي لم أأذن لهم في الدعاء، وجعلت على قلوبهم[وشفاههم قفالا، لئلا يتضرعوا الي وقت الحاجة والشدة)[١].

وهذه الجاذبية الالهية مستمرة، متصلة متواصلة لاتنقطع لحظة واحدة، كما في جاذبية الارض، ان السنة الجاذبيه ممتدة من الارض الى السماء بصورة متصلة

(١) ولعل في ترجمة هذه الرائعة العرفانية قصور او تقصير فلننقل الاصل للذين يحسنون الفارسية:

ان يكي الله ميگفتي بي، تا كه شيرين ميشد از ذكرش لبى
كفت شيطانش كه اي بسيار گو اين همه الله رالبيك گو؟
مى نيايد يك جواب از پيش تخت چند الله ميزني باروي سخت
او شكسته دل شد وبنهاد سر ديد در خواب او خضررا در حضر
گفت هين از ذكر جون وامانده اي چون پشيماني از ان كش خوانده اي
گفت لبيكم نميآيد جواب زان هم ترسم كه باشم رد باب
گفت ان الله تولبيك ما است وان نيازو درد دوسوزت پيك ما است
ني تورا درذكرمن آورده ام؟ ني كه من مشغول ذكرت كرده ام
حيله ها وچاره جوئى هاي تو جذب ما بود وگشادي پاي تو
ترس وعشق تو كمند لطف ما است زير هر الله تو لبيك ها است
جان جاهل زين دعا جز دورنيست زانكه يارب كفتنش دستور نيست
بردهان وبردلش قفل است وبند تا ننالد با خدا وقت گزند

ومتواصلة، ولا تلتقي هذه الجاذبية بشيء في الفضاء الا ان تجذبه جذبا قويا او خفيفاً حسب قابلية ذلك الشيء ونحن لانكاد ان نرى هذه الجاذبية، ولكنها حقيقة قائمة... وكذلك الامر في الجذبات الالهية ـ وفي التمثيل يكفي شبه واحد ـ تجذب كل قلب وعقل وفؤاد وفطرة وتجذب كل شيء في الارض والسماء بقدر ما تتحمل وتستوعب من هذه الجاذبية، والخلق كلهم مشدودون الى هذه الجاذبية، غير المرئية، كل بحسبه ولكن هنـاك مع ذلك قلوب محجوبة عن هذه الجاذبية، لاتنفذ فيها هذه الجذبات القوية المؤثرة، وتلك هي القلوب القاسية المحرومة والمحجوبةعن رحمة الله.

وهذه الجاذبية تمس كل قلب بمقدار فهناك من الناس من تجذبه جذبا كاملا فلا تبقي له لنفسه شيئا، وتجذب كل مشاعره واحاسيسه بشكل كامل، وتخلع قلبه عن مستقره.

فقد كان (صلّى الله عليه وآله) اذا قام الى الصلاة بريد وجهه ـ خوفا من الله، وكان بصدره ازيز كازيز المرجل[١]. وكان اذا قام الى الصلاة كان كأنه ثوب ملقى[٢]. وكانت تقول عائشة زوجة رسول الله (صلّى الله عليه وآله): كان رسول الله يحدثنا، ونحدثه، فاذا حضرت الصلاة فكانه لم يعرفنا ولم نعرفه[٣].

ودون هذه الدرجة من الانجذاب والانشداد الى الله درجات حتى تبلغ الصلاة حدا تكون كنقر الغراب ليس فيها حضور للقلب، ولا وعي للمثول بين يدي الله تعالى ولاتحمل معنى اكثر من اسقاط التكليف وبراءة الذمة.

الالهام والواردات القلبية:

والنوع الاخر من النفحات الربانية في حياة الانسان الالهام والواردات

(١) مستدرك الوسائل: ٢٦٣/١ وفلاح السائل: ١٦١ وجامع الاخبار ١١٣، واسرار الصلاة للشهيد الثاني: ٢٣ (نقلا عن سنن النبي للعلامة الطباطبائي): ٢٥١/٢.

(٢) المستدرك: ٢٦٣/١ (عن سنن النبي): ٢٥١.

(٣) اسرار الصلاة للشهيد الثاني: ١٨و٢٣ ومستدرك الوسائل: ٢٦٤/١.

القلبية.

وهو ينزل من لدن الله تعالى على القلوب السليمة العامرة وتستقبل عنه هذه القلوب على قدر سلامتها وعمارتها ونقائها، وصفائها، كما في الجذبات الالهية، فكلما كانت القلوب اصفى وانقى من الذنوب والمعاصي، واخلص لله تعالى، كانت اكثر استعدادا لقبول هذه المواهب الالهية من الالهام والواردات القلبية، والنور الذي يقذفه الله تعالى في قلب من يشاء من عباده.

وقد ورد في القران الكريم، وفي الحديث الشريف اشارات واضحة الى هذه الواردات القلبية والمعطيات الربانية التي يلهم الله بها قلوب عباده فتخلق في القلوب الصافية بصيرة وفقها ونورا.

يقول تعالى عن العبد العالم الذي رافقه موسى ـ عليه السلام ـ ﴿**وعلمناه من لدنا علما**﴾[١].

وعن موسى ـ عليه السلام ـ يقول تعالى ﴿**ولما بلغ اشده واستوى اتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين**﴾[٢].

وكذلك يقول تعالى عن يوسف ـ عليه السلام ـ:﴿**ولما بلغ اشده اتيناه حكما وعلما**﴾[٣].

ويقول تعالى ﴿**واتقوا الله، ويعلمكم الله**﴾[٤].

وعن رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ (ليس العلم بكثرة التعلم، وانما العلم نور يقذفه الله في قلب من يحب، فينفتح له، ويشاهد الغيب، ويشرح صدره فيحتمل البلاء، قيل يا رسول الله وهل لذلك من علامة ؟ قال: التجا في عن دار الغرور والانابة

(١) الكهف: ٦٥.
(٢) القصص : ١٤.
(٣) يوسف: ٢٢.
(٤) البقرة: ٢٨٢.

الى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله)[١].

وعن ابي عبد الله الصادق عليه السلام: (قال من زهد في الدنيا اثبت الله الحكمة في قلبه، وانطق بها لسانه، وبصّره عيوب الدنيا، ودوائها، واخرجه الله من الدنيا سالما الى دار السلام)[٢].

القلوب خزائن الله:

والقلوب هي الاوعية والاواني التي تتلقي هذه المواهب والنفحات الالهية، وقد ورد في الحديث القدسي التعبير عن القلوب (بخزائن الله)، يودع فيها الله تعالى ما يشاء لعباده، من المعرفة، والبصيرة، والخوف والخشوع، والذكر واليقين، والحب، والشوق، والرهبة، والرغبة.

فقد روي ان داود ـ عليه السلام ـ ناجى ربه، فقال: الهي ان لكل ملك خزانة فاين خزانتك؟ فقال جل جلاله: لي خزانة اعظم من العرش، واوسع من الكرسي واطيب من الجنة... الا وهي القلب)[٣].

حالة الانغلاق في القلب:

.... والان نعود من جديد الى حيث كنا من حديث العلاقة بين اللعن والقسوة (لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية)، فحيث يعطل الانسان منابع الوعي والفطرة، والعقل، والقلب، في نفسه، فان الله تعالى يعاقب هذا الانسان بلعنه وطرده عن رحمته وعن نفحاته التي يرسلها الى قلوب عباده، وفطرتهم وعقولهم، وصدورهم.

وهذا اللعن والطرد لايتم باخراجه عن حيز الرحمة الالهية، كما يتم اخراج

(١) الصراط المستقيم للسيد حسين بروجردي: ٢٦٧/١.

(٢) بحار الانوار: ٣٣/٢.

(٣) الصراط المستقيم: ٢٧٨/١.

الطالب من المدرسة، والموظف من الدائرة، وانما يتم بغلق منافذ قلبه، ومداخل فطرته وعقله على هـذه النفحات الالهية، فينغلق القلب تماما على النفحات الربانية انغلاقا كاملا فلا يستطيع ان يستقبل شيئا من المواهب الالهية، ولايستطيع ان يستنير بنور الله، فيبقى القلب وعاء مظلما، منغلقا على رحمة الله فيدخله الشيطان، ويهيمن عليه، وكذلك يحجب الانسان عن رحمة الله حجبا كاملا، ويحرم منها حرمانا كاملا، وهذه هي حالة قسوة القلب.

وبهذه الطريقة نفهم العلاقة بين هذه المجموعة من القضايا المترابطة.

علاقة التخلف عن الميثاق بتعطيل دور الارادة والوعي في النفس.

وعلاقة تعطيل الارادة والوعي في النفس بالطرد عن رحمة الله ـ و(اللعن).

وعلاقة اللعن والطرد عن رحمة الله تعالى بانغلاق وقسوة القلب.

قسوة القلب:

ان القلوب القاسية تنغلق على رحمة الله تعالى فلا تنفذ فيها الرحمة، كالصخرة الصماء الناتئة، وينزل عليها المطر غزيرا فلا تمتص منه قطرة واحدة، ولا تختزن منه قطرة، ان الارض الهشة الرخوة، والهابطة، ينزل عليها المطر فتمتص منه الكثير، ويتجمع عليها الكثير، ثم يتفجر من اطرافها الماء، وينبت عليه الوانا من الثمرات والطيبات، والازهار والاوراد، وتخضر وتمرع، واما الصخرة الصماء فتبقى صلبة صلدة لاتاخذ ولاتعطى.

... كذلـك القلوب الخـاشعـة والـرقيقة والنقية، تأخذ الكثير من النفحات والمواهب الالهية، وتتحول فيها هذه النفحات الالهية الى معرفة، ويقين وحب وشوق وانس وخشوع، وذكر، وعاطفة، اما القلوب القاسية فتبقى منغلقة على رحمة الله، لا تأخذ منها شيئا ولا تعطى شيئا كالارض القاحلة اليابسة.

وقد لايقتصر دور القلوب القاسية على هذا الدور السلبي فقط، وانما يواجه

رحمة الله تعالى ومواهبه النازلة بالحقد والكيد والمكر والبطر، والرئاء، والاستكبار والاستهزاء والاستعلاء، كمثل الارض السبخة التي ينزل عليها المطر فتنبت الشوك والعوسج.

ذلك مثل القلوب القاسية التي تواجه رحمة الله تعالى بالاعراض والاستكبار والاستهزاء.

يقول تعالى

﴿وننزل من القران ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين، ولا يزيد الظالمين الا خسارا﴾(١).

والقران هو القران، شفاء، ورحمة، ولكن اثر هذا القران في النفوس يختلف من قلب الى قلب، فتستنير قلوب، تنتعش، وتخشع، وتلين وترق، وتتفجر حكمة وعلما، وقلوب اخرى لاتزداد الا استكبارا واستعلاء، واعراضا عن الله وحقدا، وكرها، وطيشا، وبطرا.

وهذه القلوب اشد قسوة وصلابة من الاحجار، يقول تعالى عن بني اسرائيل:

﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك، فهي كالحجارة او اشد قسوة، وان من الحجارة، لما يتفجر منه الانهار، وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وان منها لما يهبط من خشية الله، وما الله بغافل عما تعملون﴾(٢).

وان الماء لينفذ في الصخور الصماء، وتشقق هذه الصخور لتتفجر من جوانبها العيون المتدفقة.. ولا تنفذ رحمة الله تعالى ومواهبه في هذه القلوب القاسية ولا يصدر عنها شيء من الرحمة والنور والهدى.

واكثر من ذلك فان هذه الاحجار تهبط من خشية الله كما يقول تعالى، وان هذه القلوب لاتستشعر خشية ولا خشوعا ابداً.

(١) الاسراء: ٨٢.

(٢) البقرة: ٧٤.

والخشية حالة واعية ـ على ما يظهر من الكلمة ـ وليس لنا ان نصرف هذه الكلمة عن معناها الحقيقي الذي يستبطن الوعي الا بدليل، والاية الكريمة ظاهرة في ان لهذه الاحجار خط من الوعي بدرجة من الدرجات[١] يغيب عن ادراكنا وفهمنا ولانفقهه، وهذه الخشية من الله تجعل هذه الاحجار تهبط وتنزل، وتتكسر بين يدي جلال الله وجبروته.

فهـذه الصخـور تستشعر خشية الله تعالى، بدرجة من درجات الوعي، لا نفقهها، وتهبط لهذاالسبب، وتتصدع، وتتشقق، اما القلوب القاسية فلا ينفذ فيها نور ولاهدى ولا تتملكها الجذبات الالهية وجلال الله تعالى وجبروته. وهيبته وكبرياوه، ولا يصدر منها خوف ولا خشوع ولا خشية ولا رحمة ولا نور، ولاتزيدها هذه الرحمة الالهية النازلة الا استكبارا ولجاجا وامعانا في الاعراض والحقد والاستعلاء.

تلك هي القلوب القاسية المغلقة التي يحبس الله تعالى فيها اصحابها ويحجبهم بها عن النور والهداية وعن جذبات جماله وجلاله.

وبهذه الصورة يطرد الله تعالى هؤلاء عن رحمته، ويعاقب الناقضين للميثاق والعهد:

﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية﴾.

وصدق الله العلي العظيم

(١) يقول تعالى: ﴿وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ الاسراء: ٤٤.

ويقول تعالى ﴿كل له قانتون﴾ البقرة: ١١٦.

ويقول تعالى ﴿ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته﴾ الرعد: ١٣.

ويقول تعالى ﴿ولله يسجد من في السموات والارض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والاصال﴾ الرعد: ١٥.

ظاهرة الانفصام

وهذه المأساة هي اليوم ماسأة الجاهلية المعاصرة في الغرب والشرق مأساة قسوة القلب، والانغلاق على النفحات الالهية في حياة الانسان والحرمان من معرفة الله وعن اليقين والحب، والشوق، واحتجاب القلوب عن ذكر الله وعن الارتباط بالله.

وهذه المأساة تجر الانسان المعاصر الى ظاهرة خطرة في حياته وهي ظاهرة (الانفصام) في الشخصية والتي تؤدي بالتالي الى الانشطار الكامل في شخصية الانسان.

فليست شخصية الانسان هي هذا الجانب الحيواني المادي بالتأكيد، والذي ينحصر امره في الغرائز الملتهبة وفي اشباع هذه الغرائز.

وانما ذلك هو الجزء الحيواني من شخصيته اما الشطر السامي من شخصيته فهـو روحه وعقله وقلبه وفطرته وبصيرته... وفي هذا الشطر تنحصر قيمة الانسان وتتحد انسانيته، وعندما يعطل الانسان هذا الجانب السامي من شخصيته، ويتنكر لانسانيته وقيمه وحاجاته العقليه، والفطريه ومتطلباته الانسانية، في اللجوء الى الله، والارتباط بالله، تبدأ ظاهرة الانفصام في شخصية الانسان، ويشعر الانسان انه قد فقد شطرا هاما من شخصيته، وهذا هو الشطر الذي يربطه بالله تعالى ويدخله في حقل الانسانية، ويؤهله ليكون انسانا كما خلقه الله.

ان مايتبقى له من شخصيته لايزيد على الجانب الغريزي والحيواني، وهو الجزء الاخر من شخصيته، واذا اردنا ان نلاحظ الدقة في التعبير نقول ان هذا الجزء المتبقى، هو المركب الذي يحمل شخصيته الحقيقة، اما شخصية الحقيقية فشيء اخر غير هذه الغرائز والحاجات الحيوانية.

الضياع والغربة:

ويشعر الانسان في ضياعه في متاهات الجاهلية بهذه الخسارة، وبانه افتقد الجانب السامي من شخصيته، ويشعر بالغربة عن نفسه، وبان هذه الحضارة قد اقتطعت منه انسأنيته وقيمه، يشعر بكل ذلك في كآبة وبؤس عميقين... مساكين هؤلاء الناس في الحضارة الراسمالية في الغرب وفي الحضارة الشيوعية في الشرق، غرباء عن انفسهم، وسط اهليهم وذويهم، وفي بيوتهم يبحثون عن انفسهم فلا يجدونها، ويشعرون ان هذه الحضارة قد سرقت منهم شطرا هاما من شخصيتهم، ويشعرون شعورا عميقا بالخسارة والحرمان، ولو انهم، رجعوا الى الله تعالى لرد الله تعالى عليهم ما اقتطعه من شخصيتهم شياطين الجن والانس، ولفتح الله تعالى مغاليق قلوبهم على رحمته...

(الغربة) و (الفرار):

ولكنهم يمعنون في الفرار من انفسهم، لينسوا انفسهم وينسوا انسانيتهم السلبية... انهم لو كانوا يعودون الى الله لاعاد الله اليهم كل شيء، ولكنهم يخلدون للفرار من انفسهم، في الطريق المعاكس، ويعملون على نسيان انفسهم.

ان شعور الانسان المعاصر في الحضارة الجاهلية المعاصر بـ (الغربة) ولجوءه الى (الفرار) من نفسه، اكبر ظاهرتين يشهدهما الانسان عندما يمعن النظر في احوال الناس في هذه الجاهلية الممتدة من الغرب الى الشرق.

ان كآبة الانسان المعاصر وبؤسه العميق، وشيوع الامراض النفسية في حياته،

وشعوره بالضياع والتيه يفسر (غربة) الانسان المعاصر.

وخلوده للمسكرات، والمخدرات واللهو والطرب،والابتزال، والسقوط في اوحال الجنس، والمغامرات يفسر (فرار) الانسان عن نفسه.

* * *

والقران الكريم يوضح بشكل جيد ودقيق تطور حالة الانفصام ومراحلها في حياة الانسان:

وبداية الانفصام: ان ينسى الانسان نفسه، وهو امر عجيب، ولكنه حقيقة، واذا كانت هذه الحقيقة غير واضحة لاولئك الذين خاطبهم القران الكريم قبل اربعة عشر قرن من الزمان، فانها اليوم حقيقة تملأ العين والسمع في الحضارات الجاهلية المعاصرة، وفي ادبيات هذه الحضارات، وفي سلوك الانسان فيها، وفي السقوط العجيب للانسان في هاتين الحضارتين، وفي سقوط الحضارتين نفسها.

نعم: ان الانسان ينسى نفسه،ويتنكر لنفسه، ويعطل نفسه... وهذه هي الكارثة في حياة الانسان، ينسى قيمه واخلاقه، وشرفه، وكرامته، وعقله، وفطرته، وضميره، وقلبه، وتراثه، وانسانيته.

وهل لهذه الظواهر التي عددناها تفسيراً اخر غير ان الانسان قد نسي نفسه، وتنكر لنفسه.

والقران الكريم يقول عن هذه الحقيقة بصراحة ووضوح عجيبين، لا نعلم كيف نهمه الناس المخاطبون به في وقت الخطاب.

﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله فانساهم انفسهم﴾[1].

واخر مراحل هذا السقوط الحضاري العجيب ان يحارب الانسان نفسه، ويظلمها ويعتدي عليها، ويجهز عليها.

(١) الحشر: ١٩.

وهـذا اعجب من الاول واكثـر غرابة فقد نفهم ان ينسي الانسان نفسه، ويتنكر لها، ويعطلها، ونفهم ان يفر الانسان من نفسه.. ولكن كيف يمكن ان نفهم: ان الانســان يحارب نفســه، ويعتدي عليها، ويعمل على القضاء عليها، وقد يظلم الانسان عدوه، وقد يظلم صديقه، وقد يظلم زوجه وابناءه والصق الناس به، ولكن كيف يظلم نفسه؟

ولكنـه مع الاسف حقيقـة ماثلة امام اعيننا فيا نراه من امر هذه الحضارة الجاهلية المشرفة على السقوط.

ان الانسان المعاصر في هذه الحضارة لا ينسى نفسه فقط، ولا يتنكر لقيمه فقط، ولا يعمل على تعطيل دور.عقله، وفطرته وقلبه وضميره، فقط وانما يقدم على كارثة اكبر من كل ذلك، انه يعمل للقضاء على هذه القيم، ومحاربة فطرته وعقله وقلبه يعلن الحرب على هذه القيم، وعلى مصادر هذه القيم في نفسه... ويحارب شرفه، وعفته وكـرامتـه، ويهلك نفسـه، ويقتـل نوازع الخير في نفسه ويستهزئ بالذكر والدعاء والتضـرع، واللجـوء الى الله، ويسخر من حب الله، ويقطع بدون رحمة كل حبال ووشائج الارتباط بالله تعالى.

والقران الكريم يعرض هذه الصور المأساوية ايضا بنفس الوضوح والدقة، وبنفس اللهجة الواثقة.

وما ظلمهم الله ولكن انفسهم يظلمون﴾[١].

﴿ومن يتعد حدود الله، فقد ظلم نفسه﴾[٢].

﴿ يا ايها الناس انما بغيكم على انفسكم﴾[٣].

﴿وان يهلكون الا انفسهم وما يشعرون﴾[٤].

(١) ال عمران: ١١٧.

(٢) الطلاق: ١.

(٣) يونس : ٢٣.

(٤) الانعام: ٢٦.

﴿وما يمكرون الا بانفسهم وما يشعرون﴾[١].

وتلك بعض الصـور التي يقدمها القران الكريم لتعامل الانسان مع نفسه، وعداءه لنفسه، وكيده على نفسه، وسعيه لهلاك نفسه، وظلمه وعدوانه على نفسه.

وهـذه الصور العجبية التي يعرضها القران الكريم لسير الانسان النزولي وسقوطه بشكل ابعاد لمأساة واحدة بمراحلها المختلفة.

وهي خسـارة الانسان لنفسه، لاخسارته لماله وصحته وابنائه، وانما خسارته لنفسه ﴿قل ان الخاسرين الذين خسروا انفسهم واهليهم يوم القيامة﴾[٢].

﴿ومن خفت موازينه فاولئك الذين خسروا انفسهم﴾[٣].

* * *

هؤلاء هم الناقضون للميثاق، والناكثون للعهد يعاقبهم الله، فيسلبهم الله تعالى انفسهم، وينسيهم انفسهم، ويجردهم عن قيمهم، وعن منابع الوعي والبصيرة في انفسهم... فلا يبقى لهم من انفسهم غير هذه الكتلة المادية، والغرائز الحيوانية، فلا يستحقون شيئا من رحمة الله في الاخرة، ولا يكون لهم شأن عند الله يوم القيامة، ولايكلمهم الله ولا ينظر اليهم، ويصدق فيهم قوله تعالى في الناكثين للعهد:

﴿ان الذين يشترون بعهد الله وايمانهم ثمنا قليلا اولئك لاخلاق لهم في الاخرة، ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولهم عذاب اليم﴾[٤].

لاخلاق لهم في الاخرة: ليس لهم في الاخرة نصيب من رحمة الله.

(١) الانعام: ١٢٢.

(٢) الزمر: ١٥.

(٣) الاعراف: ٩.

(٤) ال عمران: ٧٧.

ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم: لاشأن لهم عند الله، ولا يكلمهم الله، ولا ينظر اليهم... امعاناً في الاحتقار والازدراء.

ولا يزكيهم: لاينميهم ولايطهرهم، ويبقون على ما هم عليه من الرجس والحقارة.

ولهم عذاب اليم....

فهرست مواضيع الكتاب